الفصل الثالث

تأملات في ثنايا سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

المناسبة بين الآيات والسور

إن هناك مناسبة قوية وعلاقة وثيقة بين سور القرآن وآياتها، حتى لَكأنّ القرآنَ نزل مرة واحدة ولِقضية واحدة، ونلاحظ أن بين البسملة والفاتحة أيضًا تَناسُبًا من هذا النوع، ولكنْ قبل أن نُبيّنَ هذه المناسبة نرى أنه من المفيد أن نتطرَّقَ إلى مسألتين:

إن دلالة اللفظ على المعنى لها أوجه ثلاثة:

أوّلها: الدلالة الوضعية

فلِكُلّ كلمةٍ معنًى تدلُّ هي عليه، فاللفظُ موضوعٌ لهذا المعنى الذي يفهمه كلُّ سامعٍ، وعامَّةُ الناس يفهمون الكلام بهذا الشكل؛ فمثلًا: حينما نقول: ﴿اَلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يتبادرُ إلى أذهان العامّة من الناسِ معنى الحمد الشهير وأنّه مخصوصٌ بالله، وهذا هو ما تدل عليه هذه الجملة بـ"الدلالة الوضعية".

ثانيها: الدلالة العقلية

فهذه الدلالة أخصّ من الأولى وأعلى منها رتبةً وإنما يدركها الخواصُّ؛ فمثلًا: إذا بحَثْنا وحاوَلْنا الإجابة عن أسئلةٍ مثل: "لماذا قُدِّمتْ كلمةُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ على ﴿لِلَّهِ﴾؟ وما هي المعاني التي تُستَشَفّ من لفظ الجلالة "الله"؟"، وغيرها من الأسئلة التي نحاول النفاذ عبرها إلى إدراك بعض الحقائق، يصلُ الإنسان إلى جوابِها عن طريق "الدلالة العقلية".

ثالثها: الدلالة الذوقية

وهذه أعلى رتبةً من الدلالة العقلية، وهي تُخاطِبُ "خواصَّ الخواص"؛ وهي تستهدف الوصول إلى المعاني لا من خلال ظواهرِ الألفاظِ بل عن طريقِ تذوُّقِ الكلامِ واستشعارِه.

صحيحٌ أن محاوَلةَ تدقيقِ القرآن عن طريق هذه الأوجُه الثلاثة قد تفوقُ حدودَ طاقتي وطاقةِ الكثيرين من غيري، ولكنني، انطلاقًا من واجبِ توقيرِ القرآن، أرى أنني سأكون قد أسأتُ الأدبَ تجاه القرآن المعجزِ البيانِ، إن لم أتطرّق لهذا، وإنَّ موضوعَ حديثِنا هو القرآن المعجز البيان، لذا قد أكونُ عاجزًا عن بيان ما أطمحُ إلى شرحِهِ وبيانِهِ، وقد لا يَسَعُكم فهمُ جميعِ ما يُلقَى عليكم، وإنّكم مع ذلك ستدرُكون في مجمَلِ الكلام أن هذا "كلام الله المعجِز"، فهذا هو "الإدراك" الذي ينطوي عليه مقولةُ: "العجزُ عن درك الإدراك إدراكٌ"، وإذا توجَّهْنا إلى حضرة المولى تعالى بهذا المستوى من الإدراك التام الذي ينطوي عليه هذا العجزُ وقلنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فسنكون قد توجَّهنا إليه بالإخلاص التام، وارتقينا إلى مستوى "المعراج الإنساني".

والأمر الآخر هو: أن العلماءَ لم يستحسنوا استحضار تفاصيلِ معاني القرآن المعجزِ البيانِ ودقائقِها أثناء الصلاة؛ فإن ذلك يُخِلُّ بحضورِ القلب،

بل الأهمّ من ذلك هو التركيز في الصلاة على أن هذا القرآن هو كلام الله، واستحضارُ عظَمَةِ وهيبةِ الوقوف بين يدي الله، والشعورُ بمعنى: "العجزِ عن إدراكه ﷻ"، والدخولُ في جوٍّ من التفكُّر، مع الإحساس بضغطِ هذا الجوِّ وثقله... وبالتالي المثولُ أمام حضرة الحق ﷻ بعميقِ الخشيةِ وبالغِ الاحترام.

المناسبة بين البسملة والفاتحة

لسورة الفاتحة أسماء عديدة، فالقرآن الكريم قد عبَّرَ عنها بـ"السبع المثاني"، ووردَ عن الرسول ﷺ تسميتُها بـ"أمّ الكتاب" و"الشافية" و"الوافية".

سورةُ الفاتحة كنزٌ إلهيٌّ، وكلُّ مهمومٍ سيجِدُ فيها تفريجَ هَمِّهِ، وهي سورةٌ ذاتُ أسرارٍ، تُقرِّبُ الخَلقَ من الخالقِ.

وكما أن لسورة الفاتحة علاقةً قويَّةً وارتباطًا وثيقًا مع ما تليها من السور؛ فلها كذلك ارتباطٌ مع ما قبلها من البسملة، وهذا هو ما يسمّونه: "السياق"، ومن المعلوم أن الكلامَ يُقَيَّمُ على حسب سباقِهِ وسياقِهِ، وفي ضوء ذلك يمكن التفطُّن إلى التناسب بين مكوِّنات الجمل.

سورةُ الفاتحة أوَّلُ سورِ القرآن الكريم، فليس قبلَها سورة، ولكن إذا قدَّرنا في بداية السورة فعلًا يكون هذا الفعل بمثابة سِباق لها، كما يمكن أن نعتبرَ البسملةَ أيضًا سِباقًا لها؛ يمكن تقدير هذا المتعلَّق بـ"اقْرَأْ" أو "قُلْ" في بداية الفاتحة.

فقد ورد في قصَّةِ بدءِ الوحي كما روى البيهقي في دلائل النبوة[٣٤] أن رسول الله ﷺ بينما كان كسيفَ البالِ مغمومَ القلب حزينًا على ما دَهَى البشريّة من هموم؛ وبينما كان يَبحث في غارٍ مباركٍ عن الحلولِ؛

(٣٤) ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٣٢٩/٧؛ البيهقي: **دلائل النبوة**، ١٥٨/٢.

وبينما كان قد توجَّهَ بقلبِهِ نحوَ الفيض الأقدس، فتحوَّل ذلك القلب الطاهر في تلك الأماكن المظلمة إلى قلبٍ سماويٍّ صالحٍ لكونِهِ مهبطًا للوحي ومظهرًا للتجلّيات الإلهيّة... فبينما هو كذلك كان يَسمع بين الفينةِ والأخرى صوتًا، وكلما كان يسمعُ هذا الصوت يرجع إلى منزلِهِ على جناحِ السرعة، وفي يومٍ من الأيام باحَ بما في قلبِهِ لرفيقةِ حياتِهِ سيّدَتِنا خديجة ﵂، تلك التي كانت رمز الإخلاص والوفاء له طيلةَ حياتِها المباركة، فقال لها:

"إِنِّي إِذَا خَلَوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً وَقَدْ وَاللهِ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَمْرًا".

فَقَالَتْ: مَعَاذَ اللهِ، مَا كَانَ اللهُ لِيَفْعَلَ بِكَ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ.

فَلَمَّا دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَيْسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَمَّ ذَكَرَتْ خَدِيجَةُ حَدِيثَهُ لَهُ وَقَالَتْ: يَا عَتِيقُ اذْهَبْ مَعَ مُحَمَّدٍ إِلَى وَرَقَةَ.

وكان ورقةُ بن نوفلٍ ابنَ عم سيدتنا خديجة ﵂، وكان قد تنصَّر، وكان يكتب الإنجيلَ بالعربية، ويعلّمه الناسَ، وبما أنه كان يقرأ في الإنجيل إشاراتٍ وبشارات حول مَقْدَم الرسول ﷺ كان كأنه يحسُّ بظلِّهِ فوق هامَتِهِ، ومَن يَدري لعله هَمَسَ بذلك في أُذُنِ كثيرٍ ممن حَوْلَه، وبينما كان يبحث عنه ويتلمّسه في أعالي السماء كسحابة من الرحمة ستظهر عن قريب فتسقي البشرية، فيتحول بها وجه الأرض إلى جِنان؛ إذ بالرسول شاخصًا أمامه، فقال ﷺ له:

"إِذَا خَلَوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً خَلْفِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَنْطَلِقُ هَارِبًا فِي الْأَرْضِ".

فقال ورقة: "لَا تَفْعَلْ، فَإِذَا أَتَاكَ فَاثْبُتْ حَتَّى تَسْمَعَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ ائْتِنِي فَأَخْبِرْنِي".

فلما خلا ناداه: يا محمد! قُلْ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (سورةُ الفَاتِحَةِ: ١/١-٧)، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فأتى ورقةَ فذكر ذلك له، فقال له ورقةُ: "أَبْشِرْ، ثُمَّ أَبْشِرْ، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ ابْنُ مَرْيَمَ، وَأَنَّكَ عَلَى مِثْلِ نَامُوسِ مُوسَى، وَأَنَّكَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ".

فهذه الرواية تفيد أن سورة الفاتحة من أوَّلِ ما جاء به جبريل عليه السلام من الوحي.

الفاتحة هي أُولى السور، هي فاتحةُ القرآنِ وفاتحةُ كلِّ شيءٍ في الوجود، نَزَلَتْ على القلب التقيِّ المبارَكِ لِأفضلِ بشرٍ، وبعد أن نزلَتْ تفرَّعَتْ أغصانُها وأفانينُها وانتشرَتْ ظِلالُها حتى لَكَأنَّ الإنسَ والجنَّ جميعهم دخلوا تحت ظلالِ أجنحتِها، فهي كافيةٌ وافيةٌ بحلّ كلِّ معضلاتِ البشريّة.

وهناك تناسُبٌ وثيقُ الصِّلةِ بين البسملةِ وبين الفاتحة، ممّا أدَّى بكثيرٍ من الفقهاء إلى عدِّها واحدةً من سبعِ آياتٍ من الفاتحة، وقد ذكرنا سابقًا في سياق محاولتنا لبيان المعاني الجليلة للبسملة: أن الله تعالى خَصَّ المخلوقات بجلالِهِ خصًّا، فخَلَقَها، وألقى بذورَ الوجودِ على أرضِ العَدَمِ، وطوَّر الكونَ حولَ بذرةِ النور المحمّديّ، وأضفى عليها المعنى، وجَعَل الإنسانَ ثمرةً لِشَجَرَةِ الكون.

إن البسملةَ تبدأُ باسم الله، إذ "**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**"(٣٥)، وتختتم باسم "الرحيم" الذي وُصف به النبيُّ ﷺ في القرآن في قوله ﷻ: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة التَّوْبة: ١٢٨/٩)، إن الله تعالى خلقَ نورَ سيدنا محمد ثم أتبَعَهُ بِخَلْقِ سائرِ الكائنات على التوالي، فتَسَلْسَلَتْ الأحداثُ الكونيّة، سمِّها -إن شئتَ-: المراحل الجيولوجية، أو المراحل التي تلاحمت فيها الغازات، فالبَذرة التي بُذرت قد تحوَّلت إلى شجرةٍ وأَخذت طريقَها نحو النموّ.

فالإنسان قد يغرسُ في حديقتِهِ شجرةً لِتُثْمِر، وبعد الغرسِ تكون هذه الشجرةُ نُصْبَ عينيهِ وتحتَ رعايَتِهِ، فيرعاها في مختلف مراحلها، ولا يفتأ مُركِّزًا بِنَظَرِهِ على مظانِّ الإثمارِ في انتظار ما تؤتي من ثمار، وقد لا تكون في بذور الشجرة أمارات الحياة، وقد لا تَعنِي قشورُها شيئًا بالنسبة لناظرها، حتى إن أغصانَها وفروعَها وأوراقَها قد لا تَعنِي شيئًا قبل أن تؤتي ثمارها، في حين أن تلك الشجرة إنما غُرِسَت لمعنى كبير؛ فالذي غَرَسَها تكونُ نَظراتُهُ مُنصبَّة ومتركِّزة على تلك الثمرة التي ستطلّ برأسِها فوق الشجرة باسمةَ الثغرِ بين الزهور، وتُلقي بنفسِها في الأحضان على هيئة معلَّبات مجهَّزة تجهيزًا ربّانيًّا.

وهكذا؛ فالله تعالى ألقى نور محمد ﷺ كبذرة إلى أرضِ العَدَمِ، وهذا الوجودُ نشأَ من ذلك النور ومن تلك البذرة، وإن شئتَ فَقُلْ: الإلكتروناتُ قد تشكَّلَتْ منه، وعالم الذَّرَّةِ انبثَقَ عنه... ولكن هذه القضايا كلها خارجة عن نطاق معلوماتنا وإدراكنا، ومَبْلَغُنا من العلم هو أن شجرة الكون قد نبتت ونَمَتْ من البذرة المحمدية التي أُلقيت إلى أرض العدم، وتدلَّت

(٣٥) صحيح البخاري، التوحيد، ٢٢.

إلينا من العرش الأعظم، وهذه الشجرة أثمرت في نهاية المطاف، وثمرتُها هي الإنسان، وثمرة تلك الثمرة وخلاصتها هي سيدنا محمد ﷺ الذي سماه ربه ﷻ: "المصطفى" أي الصفوة والخلاصة.

و"بسم الله" تعبر لنا عن هذه المعاني، فالله بجلاله ورحمانيته خضَّ الكائنات خضًّا، فأخرج منها شجرةً، وبـ"رحيميته" منحَنَا الإرادةَ، ووفَّقَنَا لإدراك معنى الكون وجَسَامَتِهِ، وإذا استحضرنا هذه المعاني فإننا سنستطيع أن نجد المناسبة بين "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ" و"الحمد لله".

المناسبة بين البَسْمَلَةِ و"الحمدُ للّه"

إن في البسملة جاذبية نابعة من رحمة الحقّ ﷻ، ولكلِّ شيٍ نصيبٌ من هذه الجاذبية حتى سورة الفاتحة، فإننا نبدأُ بتلاوة القرآن بالبسملة، ونبدأ بتلاوة الفاتحة كذلك، وفي بدايةٍ كهذه يُواجهُنا السؤالُ الآتي: على أيّ كيفيّة وبأيّةِ حالةٍ ستقفون بين يدي الله تعالى الذي يتحدّث عن نفسِهِ في البسملة بالرحمانيّة والرحيميّة؟ وبأيّ كلامٍ ستُقابِلون تلك الرحمة الجذّابة التي تتجلّى بجلالها وجمالها؟

فجوابنا عن هذه الأسئلة المقدرة يكون على شكلِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فنكون قد قلنا: "الحمدُ والثناء لله الذي أحاطَنا ورعانا برحمتِهِ".

إن الحقَّ تعالى يتجلَّى تجلّيًا كلّيًا وعموميًّا بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وبرحمتِهِ يمنحُنا من إرادَتِه إرادةً، وبما أننا أصبحنا نُدْرِكُ معاني الأشياء يَفتح لنا بابَ الهداية، بمعنى أن الله تعالى أتى بنا إلى عالم الوجود، ثم إلى عالم الإنسانية، ثم هدانا للإيمان والإسلام، فجعلَنا أمَّةً لمن شرَّفه وسمّاه باسمه الذي خَتم به البسملةَ (الرحيم)، وهكذا فالرحمةُ التي تُحيطُ بنا بجاذبيّتِها تجعلُنا نقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالحمد لله على أنْ أوجدَنا، والحمد لله على أنْ خَلَقنا على هيئة إنسان، والحمد لله على أن جعلنا مسلِمين، والحمد لله على أنْ شرَّفَنا وجعلَنا من أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ تلك الأمَّةُ التي هي الإنسانيّة الكبرى.

وإننا قُبيلَ التوجُّهِ إلى الله تعالى نقوم بجولةٍ فكريَّةٍ في عالَمِ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ونبحثُ في آثار الله تعالى عن الأدلَّةِ التي تدلّنا عليه ﷻ، ثم إن الله بصفته "رب العالمين" يُقَلِّبُ الكون بين أصابِعِهِ -دون تشبيه أو تجسيد-، فيُطْلِعُنا على عَظَمَتِهِ وجلالِهِ، ثم يدعونا عقب ذلك في الفاتحة إلى التأمُّلِ في اسميه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، بمعنى أنه يُرينا كيف أنه -برحمتِهِ وشفقتِهِ- أَعَدَّ وجه الأرض كمائدةٍ للنِّعَمِ، ونلاحظُ أن الكونَ كأنَّهُ موجٌ من الشَّفَقَةِ يتموَّجُ بـ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وتظلُّ هذه الموجات يتبع بعضُها بعضًا، فتتكوَّنُ موجاتٌ متتابعةٌ من الرحمة، والله ﷻ مِن وراءِ هذا كلِّهِ يجعلُنا نحسُّ ونشعرُ بوجودِهِ وبرحمتِهِ اللامتناهية، وفي مقابل هذا نخاطِبُهُ بلسانِ جميع المخلوقات ومشاعرِهِم وأحاسيسِهِم القلبيّة ونقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَبَيْنَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مناسبات من هذا النوع.

وإذ نقومُ بهذا الاستكشاف والبحثِ فإننا نقوم به من غير أن نتوجَّهَ إلى الله توجُّهًا مباشرًا بصيغة المخاطبِ، فنستعملُ صيغةَ الغائب، وقد مرَّ بنا أثناء حديثنا عن البسملة أن هذا المقام مقام "الفرق" أو "الغَيبة" وهما من مصطلحات الصوفيّة.

أما مقام "الجمع" فهو أن يُدرك الإنسانُ جميع الحقائق الكونية بنظرٍ تلسكوبيٍّ، ويَمْثُلَ بين يدي الله تعالى بهذا المستوى من الإدراك.

ويمكن أن نوضِّحَ ذلك كالآتي:

إنه لا يمكن للعبد أن يدرك اللهَ تعالى، ولا يتسنى له أن يتوجه إليه ويقومَ بالعبودية له بشكل يليقُ بعظمَتِهِ تعالى، إلا إذا أَدرَكَ معنى الكائنات كلِّها مرَّةً واحدةً، ولمثل هذا الإدراك لا بدَّ للإنسانِ من تلسكوبٍ يَرى به ذلك المقام اللانهائي، حتى يستطيع مشاهدةَ الأفعال الإلهيَّة في هذه

الدائرة الواسعة، ويفهمَها ويدركها، فيقولَ -بالتالي- من كلِّ أعماقِهِ: "اللهُ أَكْبَر"، ويسبّح الله ويقدّسه، وإننا إذ لم نَحْظَ بمثلِ هذه الأمورِ على وجهٍ كاملٍ؛ فسنظلُّ في مقامِ "الغيبةِ"، و"الإيمانِ بالغيبِ".

وكلَّما نظرَ الإنسانُ إلى ما في الكون وتفكّرَ بما فيه من سعةِ التصرُّفِ؛ كلَّما حازَ القربَ من الله تعالى وحظي به، وهذا القربُ من مصدَرِ النورِ سيُذيب ما بداخلِهِ من الجليدِ، فتتزاحَمُ المشاعرُ بقلبِهِ مما لم يكن يحسّ أو يشعرُ به قبل ذلك اليوم، ثمّ يرقى إلى مقامٍ كلَّما أدركَ الإنسانُ فيه شيئًا جديدًا أدركَ أن الله مِن ورائِهِ، فمثلًا: إذا نظرتم إلى زهرةٍ ما، فإنه سيتجلَّى في قلبكم: "أن الذي صمَّمَها بذلك الشكل هو الله"، وإذا رأيتم ثمرةً على رأسِ شجرةٍ، فسيَغمر داخلَكم الإحساسُ بأن الذي صَوَّرها ووضعَها في هذا الشكل وأوصلَها إلى هذا المستوى من النضجِ والقِوامِ هو الله تعالى، وستُشاهدون على سيما أبناءِ جنسِكم تجلّياتِ الرحمن والرحيم بكلِّ محاسِنِها.

فبكلِّ هذه المشاعر والمشاهَدات يحاول الإنسان ويثابر للخروج عن "مقام الغَيبة"، فإذا به وقد نبتَتْ في قلبِهِ ووجدانِهِ مشاعرُ وأحاسيس تجاه الحقِّ تعالى، تدفعُهُ إلى مخاطَبَتِهِ ﷻ بـ"أنت"، وما إن يَظهر هذا الإحساس حتى يشعرَ بمثولِهِ أمام حضرةِ المولى ﷻ، وبتعبيرٍ آخر: يَشعر بنفسِهِ وكأنَّهُ أمام مزيجٍ من أسمائِهِ تعالى: "الأول" و"الآخر" و"الظاهر" و"الباطن"، فيقول من صميمِ قلبِهِ وبكلِّ إخلاصٍ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فيصلُ إلى المقام الذي يؤهّله ويستطيع من خلالِهِ أن يخاطِبَ اللهَ تعالى بضميرِ الخطاب "أنت".

مَن أراد أن يَحضُر مجلس السلطان فعليه أن يأتي بهديَّةٍ يقدّمها لجنابه، والذي علينا أن نقدمه هديةً لله تعالى هو: ما خَلَقَنَا لأجله،

ألا وهو: "معرفة الله"؛ فعلينا أن نَعرِض عليه تعالى "معرِفَتَنَا" له، ونعترفَ بأنّ نواصيَنا بِيَدِهِ، وبذلك يجدُ وجدانُنا مخاطَبَهُ الذي يخاطِبُهُ بـ"أنت"، والحقيقة أن هذا الإحساس الذي نُكِنُّه في وجداننا تجاه الله تعالى موجودٌ ومغروزٌ فينا بالفطرة، ولكن قد يغطِّي الوجدانَ طبقةٌ من الوسخِ والغبارِ، فإذا شاهدَ العبدُ "إجراءاتِ" رب العالمين، واطَّلع على تجلِّياته بالرحمة؛ فسرعان ما تزول هذه الطبقة وينقشِعُ الغشاءُ ويَتنظَّف الوجدانُ، ويتجلَّى مقامُ "الخِطابِ" الذي يعبِّرُ عنه "إياك"، ومِن بعد ذلك ينطلقُ لسانُهُ بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وإذا حظي العبد بهذا القرب قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لأنه لن يستطيعَ النهوض بتكاليفِ العبودية إلا بمعونةٍ في هذا المستوى، فلم تَعُدْ هناك واسطةٌ ولا وسيلة؛ فإن العبد الذي ارتقى في مقامِ الخِطاب إلى هذا المستوى لا بدَّ وأنه سيستعين بالله وحدَه، فإنه في مقامه هذا يكون قد شاهَد وراءَ كلِّ شيءٍ قدرةَ الله وعظمتَه، وبفضل ذلك ارتقى من مقام "الغَيبة" إلى مقام "الخطاب".

والإنسان في هذا المقام يشعر وكأن فرصةً قد سنحت له، وأن عليه أن يستثمرها ويستغلّها على أحسنِ وجه، وأن يطلبَ أحسن ما يليقُ أن يُطلبَ، حتى لا يفوّتَ الفرصة، فنراه يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وهذا يعني أن الحقيقة التي كانت مكنوزة في الأزل وفي البسملة، أصبحت الآن تُفْصِحُ عن نفسِها في الفاتِحَةِ وفي وضعِنا الحالي، ومن باب التفسير لهذا اللغز يقول جعفر الصادق: "لَقَدْ تَجَلَّى اللهُ لِخَلْقِهِ بِكَلَامِهِ وَلَكِنْ لَا يُبْصِرُونَ".

وكل ما سردناه إلى الآن كان عبارة عن المناسبة بين البسملة والفاتحة، وهكذا لاحظنا أنهما مترابطتان ومتعانقتان في مستوى ترابطِ أبياتِ القصيدة الواحدة.

وهناك عدَّةُ نُكَت حول المناسبة في سياق البسملة؛ فكما أننا نَصِلُ إلى طمأنينةٍ داخليَّةٍ تامَّةٍ في البسملة، فكذلك نَصِلُ إليها في الفاتحةِ أيضًا، لأن صاحبَ عنوان ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﷻ يأخذ بأيدينا ويسيح بنا في حنايا الكون، فنحن إنما نُدْرِكُ كنهَ الأشياء والحوادث ونَفهمُها تحت ضوء هذا العنوان: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فكلُّ القوانين والنواميس الجارية في الكون إنما تَجرِي تحت هذا العنوان الإلهيّ، ولكن الأحداثَ مُدهِشَةٌ ومخيفةٌ، والإنسانُ إن يَنظُر إلى هذا العنوان فحسب، سيظلُّ واجمًا في مكانِهِ جرَّاء ما ينتابُه من الحيرةِ والدَّهشةِ.

وفي هذه الحالةِ فإن اسمَي: "الرحمن" و"الرحيم" يقومان بالنجدة، ويبعثان الأُنسَ والسكينَةَ والطمأنينة، فذلكم الله ذو الشفقة والرحمة اللانهائيّة، فلا معنى للإحساس بالخوفِ والدهشةِ في ظلِّ سلطنَتِهِ وملكِهِ، وفي الوقت نفسِهِ هو "مالك يوم الدين"، فوجودُ ذلك اليوم الذي يَلقَى فيه المُحْسِنُ المكافأةَ على إحسانه والمسيءُ جزاءَ عَمَلِهِ؛ مِن أجدى الأمورِ لِتذوُّق الإنسان طعمَ السكينة والطمأنية؛ لأنَّ كون الإنسان غيرَ مرتبكٍ ومنزعجٍ ليس سببًا كافيًا لإحساسِهِ بالسكينةِ، بل لا بد من وجود السكينة بذاتها، ووجودُ السكينةِ إنما يتحقَّقُ بأن يكون هناك من بِيَدِهِ القدرة الكافية على أن يثيبَ المحسنَ على إحسانِهِ، ويَجزيَ المسيءَ على إساءَتِهِ فيملكَ ذلك اليوم.

فالإنسان يَشعُر بالسكينة والطمأنية أثناء تجواله في سياقِ وسباقِ وحنايا وثنايا سورة الفاتحة. نعم، يشعر بذلك لأنه سيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيرقى إلى مقامٍ يجعلُه يخاطبُ الله مباشرةً دون واسطة.

وهكذا نلاحظ أن الفاتحة متكاملةٌ مترابطةٌ فيما بينها باعتبار ترتيبها الداخليّ، فعلاقَتُها بالقرآن مثل علاقةِ أيّ نجمٍ بالنجوم الأخرى؛ وكالشمسِ تدورُ في فلَكِها لوحدِها؛ ولكنها في الحقيقة مرتبطة مع الأنظمة الأخرى.

ومـن الجديـر بالذكر أن النجمَ كمـا يُطْلَقُ على نجم السَّـماء فكذلك الآيـات القرآنيـة تسـمى "نُجُمًا" أيضًـا، فنجومُ السـماء لها شَـبَهٌ كبيرٌ مـع الآيات والسـورِ القرآنية؛ فكما أنها تبدو قائمةً بنفسِـها ومنقطعةً عن غيرها وفـي الوقت نفسِـهِ مرتبطةً ومتعلِّقَةً بغيرِها، فكذلـك آياتُ القرآن المعجزِ البيانِ؛ تبدو وكأنَّ كلَّ واحدةٍ منها مستقلَّة بذاتِها إلا أنها مترابطة فيما بينها في انتظامٍ كاملٍ وتناسُقٍ تام.

آيةُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين﴾

إن الفاتحة تبدأ بكلمة "الحمد"، وقد استُعمل الحمد باعتبار معناه اللغويّ مرادفًا لِكَلِمَتَي: "الشكر" و"المدح"، ولكنْ هناك فروق كثيرة بينه وبينهما، ولذلك لم تبدأ سورةُ الفاتحة بـ"الشكرُ لله" أو "المدحُ لله".

أ. مقارنة بين كلمات "الحمد" و"الشكر" و"المدح"

الحمد:

إن مفهومَ الحمدِ يعني: مقابلةَ المحمود تعالى بالشُّكْرِ على ما أسدى من النِّعَمِ باختياره ومشيئتِهِ، والاعترافَ بأنه منبعُ جميعِ الخيرات التي تستحقّ الحمد، وليس بالمهم في الحمد أن تكون هذه النعم قد وصلت -بالفعل- إلى الحامد أوْ لَا... بل المهم أن يكون المحمود مستحِقًّا للحمد، فإن إظهارنا لمشاعر الثناء والتبجيل لعظمة الله تعالى وألطافه نوعٌ من أنواع الحمد.

الشكر:

وأما الشكر فهو عبارةٌ عن الثناء بالجميل لمن نشكُرُه مقابل ما أسدى إلينا من نِعَمِهِ، فهذا الثناء يكون مقابل النعمة، وكما يمكن أن يؤَدَّى الشكرُ باللسان يؤَدَّى كذلك بالجوارِحِ وبالقلب أيضًا، فقولُ الإنسان: "الشكرُ لله" شكرٌ قوليٌّ لله تعالى، والصلاةُ شكرٌ بالجوارِحِ، وإحساسُ القلب فيها

بالامتنان تجاه نِعَمِ الله، أو دخولُهُ في حالةٍ من السرورِ والوجدِ والاستغراقِ مقابل هذه النِّعَمِ التي تُذَكِّرُه بأن الله تعالى قد رَحِمَهُ؛ كلُّ ذلك من أنواع الشكر.

المدح:

وأما المدح فهو يُستَعْمَلُ في العقلاءِ وغيرِهم، فيجوزُ مدحُ الله تعالى، فإذا قال العبد: "اللهم إنك جميلٌ، وكل أنواع الجمال التي تتموَّجُ في الكون ما هي إلا انعكاسٌ لجَلوةٍ من تجلّياتِ جمالِكَ"، فهذا نوع من المدح، وبالإضافة إلى هذا يمكنُ مدحُ شجرةٍ أو طعامٍ أو نحوها من غير العقلاء، ولكن قد يكون المدح أحيانًا في سبيل التزلُّفِ إلى الآخرين من غيرِ ضرورةٍ تدعو إليه، ولذلك فإننا نعبر عن ثنائنا لله تعالى وعن مشاعر الامتنان تجاه نعمه بـ"الحمد" و"الشكر" لا "المدح"؛ يقول الرسول ﷺ في ذم المدح: "**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ**"(٣٦)، فيمنع من ذلك، وبالمقابل يقول: "**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ**"(٣٧)، وهناك نقاطٌ مشتركةٌ تَداخَل فيها الحمد والشكر ونقاطٌ افترقا فيها وتمايزا بها.

الشكرُ علامةُ الصادقين، وقَلَّ مَن يوفَّق لذلك، قال الله تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سورة سبأ: ١٣/٣٤)، ونِعمُ الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ويقول الشيخ "سعدي الشيرازي"، في بداية كتابه "كُلِسْتان": إن الإنسانَ في كلِّ نَفَسٍ يجب عليه أن يشكرَ الله مرَّتين، فعندما يستنشق النَّفَس شهيقًا وعندما يُطلِقُه زفيرًا، فإن الذي يمدُّهُ بالحياة مرَّتين هو الله تعالى، فَمِنَ الواجبِ عليك أن تشكرَ الله على هذه النِّعَمِ بلسانِكَ وحالِكَ وقلبِكَ، ولذلك نقول: إن الشكرَ أمرٌ عظيمٌ، وهو مقام الصدقِ والوفاءِ، فالمحافظةُ

(٣٦) صحيح مسلم، الزهد، ٦٩؛ سنن أبي داود، الأدب، ١٠؛ مسند الإمام أحمد، ٤٩٦/٩.

(٣٧) سنن الترمذي، البر، ٣٥؛ مسند الإمام أحمد، ٤٧٢/١٢.

على شكرِ الله تعالى والاعترافُ بِنِعَمِهِ في كلِّ الأزمنة والأحوال هو أسطعُ برهانٍ وأنصعُ بيان على الصدق والوفاء.

أما الحمد فيقول فيه الرسول ﷺ: "**الْحَمْدُ رَأْسُ الشُّكْرِ**"(٣٨).

والحمدُ أعلى من الشكر من بعض النواحي؛ حيث إن الحمدَ هو إدراكُنا لعبوديَّتِنا وعجزِنا، والتعبيرُ عن امتنانِنَا وشكرِنَا تجاهَ الله تعالى من صميمِ قلوبنا، سواء وَصَلَتْنا منه النِّعمُ أوْ لا، فالحمد بِمِيزَتِهِ هذه يؤدَّى في مقامِ الإخلاص المحضِ، فإدراكُ العبدِ عبوديَّتَهُ وقولُه: "الْحَمْدُ لِلَّهِ" -بغضِّ النظرِ عن كمِّ النِّعَمِ الذي يُحيطُ به- يُعتَبَرُ من دأبِ المخلصين.

وإلى هنا حاولنا أن نشرح معنى كلٍّ من الحمد والشكر والمدح، والآن لنَعرض -ولو باختصار- مقامَ الحمد.

ب. مقامُ الحمد

إن الحمد هو مقام إدراكِ المنعَم عليه لعمليَّةِ الإنعام، وهذا المقامُ أعلى من مقام الاستفادة من النعمة بالفِعْلِ، لأن إدراكَ الإنعام يكون طريقًا إلى إدراكِ المنعِم، والمقام الذي وعد الله رسولَه ﷺ به سمّاه ﷻ "مقامًا محمودًا"، وفي هذا المقام تجتمِعُ "الحامدية" و"المحمودية"، ولنوضح هذه المسألة الدقيقة على النحو التالي:

إن هديةً تأتيكَ من السلطانِ تُذَكِّرُكَ بأمرين:

أحدهما: القيمة الذاتية لهذه الهدية؛ فاللذة التي يحسّ بها الإنسان منحصرةٌ في ذات الهدية...

والأمر الثاني: هو كون هذه الهدية "هدية سلطانيّة"، ومن هذا الجانب فلا يُنظر إلى القيمة الذاتية، بل المهمُّ في هذا المقام هو كون هذه الهدية "مِن قِبَل السلطان"...

(٣٨) عبد الرزاق: المصنف، ١٠/٤٢٤؛ البيهقي: شعب الإيمان، ٦/٢٣٠.

فما يبعثه هذا الجانب الثاني من اللذَّةِ والمسرَّةِ يفوقُ -بِأَلْفِ مرَّةٍ- ما يبعثُه الجانبُ الأوَّلُ، فإن في هذا الجانبِ الثاني انتقالًا من الهديَّة إلى السلطان الذي أرسلَها، والمهمُّ هو هذا الجانب.

وهكذا الأمرُ بالنسبة لإنعامِ الله وإحسانه من دون فرق، وشتان ما بين الاستفادة من النِّعم وبين الانتقال منها إلى المنعِم، والشعورِ باللذة الروحانية والسكينة منها.

ج. الحمد ومفخرةُ الإنسانية سيدنا محمد ﷺ

إن الإنسان "حامدٌ" وفي الوقت نفسه "محمود"؛ فهو "حامد" من حيث أداؤه الحمد للحق ﷻ، و"محمود" من حيث إنه يُحمَد ويثنى عليه في السماوات والأرض، وهذه الكلمات: "أحمد" و"محمد" و"محمود" التي هي أسماءٌ لخلاصةِ الكائنات ومفخرةِ البشريَّةِ، هي أيضًا مشتقَّةٌ من "الحمد" ودائرةٌ في فَلَكِهِ.

واسمه: "أحمد" هو أول كلمة افتتحَ فيها ألِفُ كلمةِ "الله" الرمزيَّةَ إنما هي "أحمد"، ثم جاء اسم "محمد" قافيةً لشعر الكون، والكون بدأ بالحقيقةِ الأحمدية ووصل إلى الحقيقةِ المحمّدية، فهو هناك "أحمد" وهنا "محمد"، وهكذا اكتمل شِعر الإنسانية ونظمُه وقصيدتُه.

إن الرسولَ ﷺ كلما قام في حياته بالعبودية حُمِدَ، والحامد هو الله ﷻ، وكلَّما حُمِدَ زاد هو من عبوديَّتِهِ وحَمدِهِ، فجَمع بين الحامدية والمحمودية، فصاحبُ "المقام المحمود" مَظهرٌ لألطافٍ إلهيّة كثيرة، والشكرُ والحمدُ يستجلبانِ الشكرَ والحمدَ، إذ حظوةُ الإنسان بالحمدِ والشكرِ لله نعمةٌ من نِعَم الله عظيمةٌ تستوجبُ الحمدَ والشكرَ، وحظوتُه ﷺ بـ"المقام المحمود" تستوجبُ شكرًا عظيمًا، وهذا الشكرُ يستوجبُ شكرًا كذلك وهكذا دواليك، فالله تعالى يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة

إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤) وهذا يعني أنه ﷻ سيوسِّع دائرةَ "المقام المحمود"، ونحن بِدَورِنا نقولُ عقبَ الأذان: "**وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ**"(٣٩)، داعين له بالمقام المحمود، وسائلين المولى ﷻ أن يوسع له تلك الدائرة على أكملِ أشكالها.

فإن صاحب المقام المحمود بيده "لواء الحمد"، والبشرية دخلت عالم الوجود بـ"أحمد"، ووَجدت نورها بـ"محمد"، وستحرز الأمنَ والخلاصَ من العذاب بالدخول تحت لواء "الحمد"، وبفضل ذلك ستَدخُل الجنةَ ويكون آخر دعواها: أنْ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة يُونُس: ١٠/١٠).

والحمد بدايةُ الكون وروحُه، والحمد يدور حول ذلك المحورِ النورانيّ الذي يتركَّز فيه نظرُ الحق ﷻ، وهذا المحورُ وهذا المركزُ هو سيِّدُنا محمد ﷺ، والحمد لا يفتأُ يُعبّر عنه تعبيرًا وينسجُه نسجًا، ونحن بدورنا نرجو من الحق تعالى أن يجمعنا تحت لواء الحمد، يقول رسول الله ﷺ حينما ذكر ونقل إلينا صِفَتَهُ ونعتَهُ في الكتب السالفة: "**أُمَّتُهُ الْحَمَّادُونَ**"(٤٠)، وفي حديث آخر: "**خَيْرُ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَمَّادُونَ**"(٤١)، والحمَّاد هو الذي يَحمد الله تعالى دونما انقطاعٍ أو فتور، فعلينا أن نحمده تعالى مع فاتِحةِ كلِّ أمرٍ وخاتِمَتِه.

د. كلمةٌ تملأ الميزان: الحمد لله

وفي الحديث الذي يرويه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: قال عمرُ لعليّ ﷺ: قد علِمْنا سبحان الله، ولا إلَه إلا الله، فما الحمدُ؟ فقال عليٌّ: "كلمةٌ رَضِيَها اللهُ لنفسه"(٤٢)، فهذا الجواب يُعَبِّرُ عن سِرٍّ دقيقٍ مهمٍّ.

(٣٩) صحيح البخاري، الأذان، ٨؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٤٣؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٣٨؛ البيهقي: السنن الصغرى، ١٢٢/١.

(٤٠) مسند الدارمي، ١٥٨/١؛ الطبراني: المعجم الكبير، ٨٩/١٠.

(٤١) مسند الإمام أحمد، ١٢٥/٣٣.

(٤٢) ابن أبي حاتم: التفسير، ٢٧/١، ١٢٥٨/٤، ١٤٧٩/٥، ١٩٣١/٦.

وروى ابن ماجه في سننه عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ حدثهم: "**أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللهِ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ، فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَا: يَا رَبَّنَا، إِنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً لَا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا، قَالَ اللهُ ﷻ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا قَالَ عَبْدُهُ-: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ قَالَا: يَا رَبِّ إِنَّهُ قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِ وَجْهِكَ وَعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَقَالَ اللهُ ﷻ لَهُمَا: "اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي، حَتَّى يَلْقَانِي فَأَجْزِيَهُ بِهَا"**[٤٣].

وفي حديث آخر: يقول ﷺ: "**الْحَمْدُ لِلهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ**"[٤٤]، والمعنى أن العبد إذا حمد الله بقلب خاشعٍ، ومَثُلَ أمام الحقّ ﷻ ولهجَ لسانُه في هذا الاتجاه، وهاجَ قلبُهُ وارتعَدَ من جلالِ الوقوف أمام حضرةِ الحقّ تعالى، فإن ذلك يكفي لأن يملأ الميزان، مهما كان ما في الكفَّةِ الأخرى ثقيلًا.

هـ. كلمة "رَبّ"

إن كلمة الربّ مصدر بمعنى "التربية"، وهي استخدمت هنا بمعنى اسم الفاعل، أي "المربّي"، وهناك حكمةٌ ونكتةٌ في التعبير بالمصدرِ عن اسمِ الفاعل؛ أي بـ"ربِّ العالمين" بدلًا من: "مربّي العالمين"، ومعلومٌ أنَّ التعبيرَ بالمصدَرِ يُفيدُ حصرَ الفِعلِ بالفاعِلِ، فكأنه يقال: إن المربّي هو عين التربية، وهو المربي حصرًا، ولا تصدُر التربية من غيره تعالى؛ ومثلُه في اسم الله تعالى "العَدْل"، أي هو مصدرٌ سمَّى اللهُ به نفسَه.

إن الله هو الذي يفعل جميع ما يلزم لتربية الكمّ الهائلِ من الأنواعِ الموجودةِ على طبقات الكون وصحائفها، إننا إذا أخذنا بالاعتبار تربيةَ البشرِ فقط، فإن الذي خلقَهم وسوّاهم ثم دلّهم على الجنة هو الله، والذي

(٤٣) سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٥.

(٤٤) صحيح مسلم، الطهارة، ١؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٨٥؛ سنن النسائي، الزكاة، ١.

عرَّفهم بجهنَّم وحذَّرهم منها، والذي أرسل الرسولَ ﷺ وحثَّ على اتِّباعه، والذي دلَّ الإنسانَ على حقائق القرآن وفتحَ عينَه وقلبه، والذي تحدَّث في القرآن عن الكون، وشرَحَ الكونَ فَبَسَطَ الحقائق أمام الإنسان حتى يُعاينَها ناصعةً جليَّةً هو الله، والذي يتصرَّفُ في هذه الدوائر الكونيّة الواسعة هو الله.

إن الله هو الذي يربّي كل الكائنات؛ يربّيها مباشرة كُلًّا في حدود دائرةِ فطرتِهِ، فلن ترى أيَّ موجودٍ خارجًا عن حدود هذه التربية، والصاحبُ الوحيد لهذه التربية الكونيّة الشاملةِ هو الله ربُّ العالمين.

والذي يربّي الإنسان أيضًا هو الله... إن الحق ﷻ ربّاه بأنْ شَرَحَ له طرق الهداية والضلالة، وجعلَ الأنبياء أئمَّةً الحياة الدنيويَّة والأخروية ورؤَّادَها، فكما هو يربّي النبيَّ يربّي البدويَّ، لكنْ كلٌّ على حسب قابليَّاتِهِ واستعداداتِهِ.

ولن تَصِلَ البشريَّةُ إلى الكمال الحقيقي إلا بتربيتِهِ ﷻ، والطريقُ الأرشدُ لهذا هو الاسترشاد بِهَدْيِ القرآنِ، والتربيةُ هي أن يتَّخِذَ كلُّ موجودٍ طريقَهُ نحو الكمالِ في نطاقِ حدودِهِ، والذي يوصله إلى الكمال هو الله "ربُّ العالمين".

إن الفلسفة الموصِدَةَ أبوابها أمام الوحي تُصوِّر الموجوداتِ وكأن بينها عداءً وصراعًا، في حين يذكر القرآنُ في مناسباتٍ عدّة أن السائد في الحياة هو "التعاون"، ويُعلِّمُنا أن ننظُرَ إلى الحياة من هذا المنظورِ.

نعم، إن النواميس والقوانين السارية في الكون لَتَدُلُّ على ما فيه من "تعاون"؛ فالعناصر الجامدة تُمِدُّ النباتات، والنباتاتُ تمد الحيوانات، والحيوانات تمد بني الإنسان، وهذا في الوقت نفسه يُعتبر ترقيةً لكلِّ نوعٍ على حِدَتِهِ نحو الكمال، وإذا كان التراب يربي في أحضانه النبات وكأنه أمٌّ شفوق حنونٌ عليه؛ فكيف يمكن أن يسمَّى هذا التكاملُ صراعًا وجِدالًا!؟

لكـن الفلسـفة تنظر إلى القضيـة بمنظارٍ معكوس، فإنها تَـرى هذا التعاون والإمـداد كأنه قهرٌ وغصبٌ للطرف الآخر، وهذه مقاربةٌ مرفوضةٌ لا تمتُّ إلى الصحّة أو الواقعيّة بِصِلة.

إن الله تعالـى يسـيّر الكـون والأحـداث في نظـامٍ وانتظـامٍ عن طريق النواميس، ويسـوق كلَّ شـيءٍ نحو الكمال، والحكمةُ الفريدةُ التي تترتَّبُ علـى ذلـك هي تمييزُ الخبيـثِ من الطيِّـب، والخيرِ من الشـر، والنورِ من الظلمة، والألماسِ من الفحم، وبهذا يصير المؤمن أهلًا للجنة، والكافرُ أو العاصي أهلًا للنار، والله ﷻ كما يميز في هذه الدار بين الصِّنفين، سـيميز بينهمـا في الدار الآخـرة أيضًا وسـيقول: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَـا الْمُجْرِمُونَ﴾ (سـورة يس: ٥٩/٣٦)، وكلّ هذا يدل على أن الأمرَ الوحيد السـاري في الكون هو "تربية" الحق ﷻ، والله تعالى يربي الأشـياء ويُسـيّر الأحداث باسْـمِهِ: "الرب"، وإن من يسـتطيع أن يشـاهِد حال الإنسـان، وكيف أنه يُساقُ إلى الكمالِ، فإنه سيَقبل هذه الحقيقة ولن يَشعر بالحاجة إلى البحث عن دليلٍ آخر.

إن الأحـداث بِيَـدِ الله ﷻ، وكمـا أن المحـرِّك الأول دائمًـا هـو الله، فكذلـك الـذي يُديم تلك الحركة ويمنحُها اسـتمراريّةً كفيلةً بإيصالِها إلى غايةٍ وهدفٍ معيَّنٍ هو الله أيضًا، فالأشـياء بهذا التحريك الأول تُسـاقُ نحو الكمـال، فلـو تناولنا طفلًا -على سـبيل المثال- فالذي جـاء به إلى عالم الوجود ليس هو الحيوان المنويّ ولا البويضة أبدًا؛ فإن الذي خلقَ الأبوين أوَّلًا ثـم طـوَّرَ ذلـك الولد فـي ظلماتٍ ثلاثٍ فـي رَحِـمِ الأمّ، إنما هو الله لا أحد سـواه، فلا بدَّ من وجودِ تناسـبٍ بين السـبب والنتيجة، وليس من الصحيح قطعًا التغاضي عن هذا...

ويمكن أن نوضّح هذا بمثال:

هبْ أنك شاهدتَ صرحًا شامخًا، ورأيتَ بجانبِهِ ولدًا مكبَّلَ اليدين والرجلين، فادَّعى ذلك الولدُ بأنه هو الذي بنى هذا الصرح، فإنك لن تصدِّقه؛ لأنه لا بدَّ من وجود تَناسُبٍ بين الفاعل والأثر، وعلى غِرار هذا؛ فههنا الكونُ أمامنا كأنه صرحٌ كاملٌ بكلِّ معنى الكلمة، وهنا وهناك "أسبابٌ" كأنها ذلك الولد المكبل، فكما أنه ليس من المعقول أن نُسنِدَ بناءَ الصرحِ إلى الولَدِ المكبَّلِ فكذلك إسنادُ خَلْق الكون إلى هذه الأسباب العاجزة عن ذلك مُحالٌ عقلًا، فالذي خَلَقَ هذا الكون وربّاه، فساقه نحو الكمال ليس إلا الله رب العالمين، والحقيقة أننا لا نفهم كيف يصرّ المنكِرُ على إنكارِهِ، في حين أن الكونَ كلَّه من الثرى إلى الثريّا، ومن الأرض إلى السماء مشحونٌ ومزيَّنٌ بالأدلة، وكلّ الأحوال والكيفيّات تدلّ على وجود الله تعالى، فإنكارُهُ الحقَّ تعالى وعدمُ معرِفَتِهِ به رغمَ دلالةِ كلِّ شيءٍ عليه؛ هو تمرُّدٌ رهيبٌ وكُفرٌ مخيفٌ تحارُ له العقول.

فإذا تناوَلْنا مفهومَ "ربِّ العالمين" من هذه الزاوية ستصير الأشياء كأنها كتابٌ يُقرَأُ.

ولو أن البشرية نظرت إلى نفسها بالمنظورِ القرآنيّ، وأمعنَت النظرَ في كلام الله بهذا الشكل، ولو مرّة واحدةً؛ لكانت في وضعٍ مختلفٍ تمامًا عمّا هي عليه الآن، ولكانت تَفهم الكلامَ الإلهيَّ على غير ما تفهمه الآن.

ذلك هو الله الذي خلقَ الإنسان برحمته، فتدارَكَهُ بالقرآنِ نتيجةً لِرَحْمَتِهِ أيضًا، وجَعل هذا الإنسان الذي خلقَهُ على صورتِهِ[٤٥] مخاطَبًا للقرآن الذي تتلاطمُ فيه أمواجُ رحمتِهِ، فلو أن الإنسان دقَّقَ النظرَ في نفسِهِ وفي الكتاب الذي أُرسل إليه، من هذه الزاوية وبهذا المستوى؛

(٤٥) انظر: صحيح البخاري، الاستئذان، ١؛ صحيح مسلم، الجنة، ٢٨.

لـكان يحـسّ على كاهِلِـهِ بِثِقَلِ التكليف الذي عبَّرَ عنه الرسـول ﷺ بقوله: "لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"(٤٦)؛ ولكان يبحث أيضًا عن مكان يهربُ إليه ويختبِئُ فيه جرَّاء ما يُحسّ به من الخشـية والخجل. نعـم، إن نظـرةَ الإنسـان إلـى ذاتِهِ من سـماء الصفـات الإلهيّـة، ومن برجِ الأسـماء الإلهية، من شـأنها أن تجعل الإنسـانَ هكذا، وإنما يتسنَّى له هذا إذا خـاضَ بحـارَ القرآن مثل الغَوّاص، أو حلَّق بيـن نجوم القرآن ورفرفَ بجناحيه.

فالإنسـان من الرعيل الأول من هذه الأمة نظرَ إلى نفسـه بهذه النظرة، فاكتَشف ذاتَه، فجعله الله حاكمًا على الجميـع، مصداقًا لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البَقَرة: ٢/٣٠)، فكلما توجهت إليه ﷻ القلوبُ والعقول والمشاعر توجُّهًا كلِّيًا تجلَّى هو أيضًا بحقيقةِ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْـرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَـا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سـورة الأَنْبِيَـاء: ٢١/١٠٥). أجل، إنه تعالى ورَّث كلَّ ما ورَّثه لعباده الصالحين، فلذلك كانت الكلمةُ المسموعة في ذلك العصر للمسلمين وحدهم.

إن الله تعالى أجرى مقابلةً بينه وبين الإنسان والكون؛ حيث إنه اتخذه مخاطَبًـا، ووَضَـعَ دائـرة "العبوديـة" فـي مقابلِ دائـرة "الربوبيـة"، وعامَلَهُ برحمانيَّتِهِ ورحيميَّتِهِ، وعلَّمَنا وبلَّغنا ذلك في البسـملة، فنحن بدورنا نُقابِل رحمانيَّتَـهُ ورحيميَّتَهُ اللانهائيّتين بـ"الْحَمْدُ لِلّٰهِ"، ونقوم له بالشـكر والامتنان على كل ما أسداه لنا.

و. ﴿الْحَمْدُ لِلّٰه﴾ وأركانُ الإيمان

إن الجملة المقدسـة: "الْحَمْدُ لِلّٰهِ"، تحتوي على كلِّ الأركان والأسسِ الإيمانيّة التي يُطلبُ منا الإيمان بها، وسأوضح ذلك فيما يلي:

(٤٦) صحيح البخاري، الجمعة، ١٠٧؛ صحيح مسلم، الفضائل، ١٣٤.

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والإيمانُ بالله

إن الحمد يعني وقوفَ الإنسان تجاه آثار الحقّ ﷻ موقفَ الإعجاب والاستحسان، وأن يخرّ ساجدًا أمام كمالها بالحيرة والانبهار، ويَفيض محبّةً واشتياقًا تجاه جماله، ويتذلَّلَ خاضعًا مقابل إحسانه، وسبق لنا أنْ تَطرَّقنا لهذا الموضوع أثناء شرحنا الجوانب اللغوية للفظ الجلالة "الله"، ولكن قد يكون من المفيد أن نُذكِّر به مرة أخرى:

إن كلمة "الله" تنطوي على معانٍ مثل: "المعبود" و"الذي ينقاد له كلّ شيء"، و"الذي يُلجأ إليه" و"الذي يُعتَمَدُ عليه"، و"الذي يقفُ الآخرون أمام عظمتِهِ بالإعجاب والانبهار"، و"الذي يوثَقُ به ويُطمَأَنُّ إليه"، وهذا يعني أنه إذا قيل: "الحمد لله" يكون المقصودُ: نفيَ المعبوديَّةِ عن كلِّ ما سوى الله، وأنّه هو المقصودُ الأوحد، والملجأُ المُفْرَدُ لا سيما في أوقات الحيرة والاندهاش، وأنه هو من تُرفَعُ إليه أكفُّ الضراعة عند الحاجة.

وكذلك إذا قال القائل: "الحمد لله"، فإنه يستحضر في ذهنه: التصرُّفَ اللانهائيّ لحضرة الحقّ تعالى، ويستشعرُ الحيرة والانبهار أمام جماله في كماله، وبالتالي يخرّ ساجدًا، وينتشي مندهِشًا تجاهَ جمالِهِ، ويرى نفسَه عبدًا مغلولَ العُنُقِ مكبَّلَ الرجلين ببابه تعالى، والذي يُفَسِّرُ هذا المعنى الكبير الذي ينبثِقُ من الحمد ومن لفظِ الجلالةِ، هو "لا إلهَ إلا الله"، وكل الحقائق الكونية مندمجة في "لا إلهَ إلا الله"، وبهذه الجملة المقدَّسة يتميّز المؤمن عن الكافر، والمسلم عن الملحد، والمستسلم تمامًا لله عن الزنديق، والمخلصُ عن المنافق، فكأنَّ "لا إلهَ إلا الله" علامةٌ بها يُفرَّقُ بين أيّ زمرةٍ وأخرى...

ولكنّ هناك أمرًا وهو أننا لن نستطيع -بذكرها بألسنتنا فقط- الرقيَّ والوصولَ إلى هذه الحظوة وهذا الأفقِ الذي ينبغي لنا إدراكه، فالحقيقة

هي أن هذه الكلمةَ إذا تجلَّتْ في القلب "إذعانًا"، وفي النفس"تقبُّلًا"، وسيطرَتْ على مشاعر الإنسان، فحينذاك يُسمَّى "إيمانًا"، وإلا فكما أن الإنسانَ الذي يشعرُ بالبردِ لن يدفأَ بذكرِ مجرَّدِ النار وترددِ اسمِها، والمسمومُ لن يتعافى من تأثير السمِّ بمجرَّدِ أن يقول: "لن يضرّني السمّ"، فكذلك الأقوال بمجرَّدِ ترددِها باللسان؛ لن تصلَ إلى مستوى الإيمان والإذعان، فالإنسان إذا قال: "لا إلـهَ إلا الله" لا بدَّ أن يكون إيمانُه بأنه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، -على الأقلّ- في مستوى إيمانِ من يعتقد أن السمّ يقتل وأن النار تُحرِق، حتى يُعتَبرَ اعتقاده إيمانًا.

أجل، إن الإنسان عليه أن يحصر نظرَه إلى الله وحدَه وأن يُقدِّم عبوديَّتَه له وحده، فحينذاك تجتمع كلمةُ "لا إلهَ إلا الله" التي تجري على لسانه بالّتي في قلبِهِ، ويصيرُ مؤمنًا حقًّا، وأما الإيمان دون هذا الشكل ليسَ إيمانًا حقًّا، لا وألفُ لا، إنه إذا لم يتحقّق الإيمان بالله يقينًا تامًّا لا شكَّ ولا ريبَ فيه كما الإيمانُ بأن النارَ تُحرِقُ وأن السّمّ يقتُلُ؛ فلن يسمَّى إيمانًا حقًّا.

وعلينا أن نذكرَ نقطةً مهمّةً وهي: أن إحراقَ النار، وقتلَ السّمِّ ليس من خاصيتهما الذاتيّة، فحرقُ النار وقتلُ السُّمِّ من النواميس الكونيّة، والذي وَضَعَ هذه النواميس هو الله ﷻ، ولذلك فنِسبةُ الإحراقِ في النارِ إلى ذات النار، أو نسبةُ التسميم إلى ذات السمِّ؛ تُخالِفُ عقيدَتَنا وطريقَ أهلِ السنّة والجماعة، فالنار إنما تُحْرِقُ بمشيئةِ الله، حيث إنها لم تُحْرِقْ سيّدَنا إبراهيم عليه السلام، وكذلك السمُّ إنما يقتلُ بمشيئةِ الله، إذ إنّ اللحمَ الذي جَعلت اليهوديةُ فيه السمَّ في خيبر قَتل بِشْرًا رضي الله عنه ولم يقتل الرسول ﷺ.

وهذه الأحداثُ تدلُّ على أن الذي يخلق الأفعال وآثارَها هو الله لا غير، وكلُّ مَن يؤمن بالله يجب عليه أن يؤمنَ بهذا الأمر على هذه

الشاكلة، وإن الإنسان المربوط -مادِّيًّا- بالدنيا؛ لن يرقى في مراقي السماء إلا بمثل هذا الإيمان.

ثمّة قوّة خفيّة تدفعُ الإنسان نحو "المَعبَد"، حتى إنه في الأوقات التي لا يتمكّن فيها من العبادة يجد نفسَهُ أمام "وخزِ ضميرٍ" لا يُمكن تصوره، فكأنَّ هناك قوَّةً تدفعه أو تجذبه نحو الآفاق السامية، فهو يبحث في هذه الآفاق عن السكينة والاطمئنان، وبفضل الإيمان يسلِّم الإنسانُ إرادته وعقلَه لهذه القوة الدافعة أو الجاذبة، وسيوصله هذا "التسليم" إلى الجنَّةِ والجمالِ الإلهيّ السرمديّ، فهو بفضل ذلك إنسانٌ مطمئنٌّ، قد ارتقى الإيمانُ في قلبه إلى مستوى اليقين، وكما أن عالَمَهُ القلبيَّ يكون منفتحًا على الجنةِ ومِرآةً صافيةً تعكسُ "جمالَ الله"؛ كذلك يكون بيتُه والمجتمعُ الذي تَكوَّن ويتكوَّن من أمثالِهِ ناشرًا لأريجِ العالَم الماروائيّ وشذاهُ عَبَقًا عَبَقًا.

إن مشاعرَ العبوديَّةِ مغروزةٌ في فطرةِ البَشَرِ، واللهُ ﷻ خلقَ الإنسانَ في فطرةٍ وقِوامٍ يؤهِّلانِهِ للعبوديّة، ولكن الإنسانَ في كثيرٍ من الأحوالِ أساءَ استخدامَ ذلك واستعْمَلَهُ في غيرِ موضِعِهِ، فتوجَّه نحو مخلوقات لله عاجزةٍ ضعيفة لا تليق بمقامِ المعبوديّة أبدًا، من أمثال الحجر والشجر والنجوم والشمس والقمر، ونصَبَها في محراب المعبودية، فانحط من مقام العبودية لله الذي هو في أعلى علِّيّين إلى دركاتِ الشِّرْكِ التي هي أسفل سافلين، وهذه النتيجة تُذكِّرنا بالحقيقة التي ذكرناها آنفًا، من أن العبوديَّةَ عاطفةٌ مغروزةٌ في طبيعةِ الإنسانِ وفطرتِهِ، فاختلاقُ الناس معبوداتٍ عديدةً وانحناؤهم لها إذا لم يجدوا المعبودَ الحقَّ؛ إنما هو انحرافٌ من هذه الحالة الطبيعيَّةِ ليسَ إلا.

والحالُ أن سيِّدَنا إبراهيم عليه السلام الذي هو رائدُ الحنيفيّة التي هي دينُ الفِطْرَةِ، داسَ -كما قصَّه علينا القرآن- على كلّ الأسبابِ والوسائلِ، ودلَّنَا على أساليب الرقيِّ إلى الله تعالى، فهو عليه السلام قد أعلن على الملإِ أن هذه الكواكب المتلألِئَة والتي تُبهر عين الإنسان؛ لن تَصلح للألوهية، واستَدَلَّ على ذلك بأفولِها، كما استدلَّ على ذلك أيضًا بِأُفُولِ الشمس والقمر، وهو إذ كان يُبَيِّنُ أن الأشياء التي تأفل لن تكون آلهةً؛ كان يستخدمُ أسلوبًا ولغةً يفهمُها كلُّ إنسان على مختلف مستويات الإدراك(٤٧).

فالبشرية كلَّما وَعَت هذا الأمرَ تمسَّكَتْ بالعروة النورانيّة التي ينطوي عليها معنى قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ (سورة الأنعام: ٧٩/٦)، فإنها سترتقي في الممرات النورانيّة، وترتفع إلى مقام العبودية التي هي الكمال والذروة، ولن تدرك معنى "الإنسانية" إلا بهذا الارتقاء.

ولن تَصِلَ البشرية إلى هذا المستوى إلا بفضل الأنبياء ووساطَتِهم، ففي طريقهم النوراني ينكشِفُ الغِطاء عن بصيرةِ الإنسان، ويصير كأنّه يلاقي الله ويراه، وإنما يمكن إدراك هذا السر بالعبوديّة، وهو سرٌّ يُتذوَّقُ فقط؛ لا تكتبه الكتبُ، ولا تحتوي معناه الكلماتُ والسطورُ، ويعجزُ مَن تذوَّقَهُ عن التعبيرِ عنه، وهو شعورٌ لن يَصِلَ إلى مستوى الإحساسِ به إلا القليلُ من الناس حتى أثناء تلاوة القرآن، فصاحبُ هذه الحال يشعرُ وكأنَّ الوسائط والوسائل قد انمحَتْ دونها، وتفضَّلَ سلطانُ القلوب بالنزول إلى قصره، والإنسانُ في مثل هذه الحال يعيش حالةً من الغيبوبة، بل هو في وضعه هذا يكون ناسيًا حتى لنفسه، في غايةِ الدهشة والحيرة.

والذي يعتريه مثل هذه الحال ماذا عساه أن يقول؟ وكيف يعبر عن حالته؟ فبعضهم قال: "لَا مَوْجُودَ إِلَّا هُو"، والبعض الآخر قال: "لَا مَشْهُودَ

(٤٧) انظر: سورة الأنعام: ٧٦/٦-٧٩.

إِلَّا هُوَ"، ومنهم من قال: إني لا أشاهد في الكون شيئًا سوى تجلّيه ﷻ، وكلٌّ مِن هؤلاء حاول أن يُعبّر عن هذه الحال بأسلوب يخصُّه، ولكن مهما حاول المحاولون وأيًّا ما قاله القائلون، فكلُّ ما يقالُ في هذا المجالِ ليس إلا ترويحًا عن النفس مقابلَ ما يُشاهَد ويعاشُ، وإلا فالتعبير عن أصل هذه القضية بالألفاظ والكلمات من باب المستحيلات.

إن الإنسان لا يصِل إلى السكينة والطمأنينة إلا بالتوحيد والإيمان بالله، وقولُنا: الحمد لله، يحتوي على معنى أننا نشكر الله تعالى الذي لَطَفَ بنا فعرَّفَنا بذاته، وبذلك أوصَلَنا إلى التوحيد.

و"الوحدانيةُ" من لوازمِ الألوهيّة لا تنفصلُ عنها؛ فمن المحال التفكُّرُ في الله من دون التفكر في "وحدانيّته"، فنحن نعبّر عن هذا ونقول: الحمد لله، وهكذا نُخصِّصُ الحمدَ بالله تعالى لأنه هو المتفرِّدُ بالألوهية، وبيده الخير والشر، وتُسجَّل لديه الحسنات والسيئات فيثيبُ على الطاعات ويجازي على المعاصي.

ولا مجال في الكون للشِّرْكِ ولو مثقال ذرَّةٍ؛ إنّ "برهانَ التمانُعِ"(٤٨) يدحضُ دعوى الشِّرْكَ ويرفضها رفضًا قاطعًا، فلا يمكن أن يكون في قريةٍ واحدةٍ مختاران، ولا في قضاءٍ مديران ولا في محافظةٍ واليان، وإلا حَصَلت الفوضى، فهذا الوضع يُبَيِّنُ أن الحاكميّةَ لا تقبلُ الشركة، فلا يمكن أن يكون لهذا الخالِقِ العظيمِ الذي جعلَنَا نحسُّ به من خلال هذا النظام والانتظام السائدِ في الكون ندٌّ أو شريكٌ، إن الله هو الذي يستوي

(٤٨) برهان التمانع: دليل من الأدلة التي يسردها علماء العقيدة والتوحيد لإثباتِ وحدانيّة الله، يقول القاضي أبو بكر الباقلّاني في كتاب التمهيد (ص ٤٥) وهو يشرح هذا الدليل: "لَيْسَ يجوز أَن يكون صانع الْعَالم اثْنَيْنِ وَلَا أَكثر من ذَلِك وَالدَّلِيل على ذَلِك أَن الِاثْنَيْنِ يَصح أَن يختلفا وَيُوجد أَحدهمَا ضدّ مُرَاد الآخر فَلَو اخْتلفَا وَأَرَادَ أَحدهمَا إِحْيَاء جسم وَأَرَادَ الآخر إماتته لوَجَبَ أَن يلحقهما الْعَجز أَو وَاحِدًا مِنْهُمَا لِأَنَّهُ محَال أَن يتمّ مَا يُرِيدَان جَمِيعًا لتضادّ مراديهما فَوَجَبَ ألّا يتما أَو يتم مُرَاد أَحدهمَا فَيلْحق من لم يتم مُرَاده الْعَجز أَو لَا يتم مرادهما فيلحقهما الْعَجز وَالْعجز من سمات الْحَدث، وَالْقَدِيمُ الْإِلَهُ لَا يجوز أَن يكون عَاجِزًا". (الناشر)

أمام قدرتِهِ خلقُ ذرَّةٍ واحدةٍ وخلقُ الكون بأسره، وهو الذي خَلَقَ الإنسانَ كما خَلَقَ الكائنات، وكما خلقَ زهرةً خلقَ الربيعَ بأكمَلِهِ، وكما خلق الربيع خلق الجنّةَ بكلِّ مراتبِها وخلق عالمَ الأبديّة بكلّ طراوته، فتصوُّرُ الشريكِ لله يُفْسِدُ الخيالَ ويؤدِّي إلى الفِسْقِ ويقضي على طمأنينةِ البالِ، وهو مَرَضٌ ذهنيٌّ يُربِكُ الإنسانَ ويزعجُهُ، ويُشَتِّتُ فكرَه ويُفْسِدُ ما في نظامِهِ الفكريّ من التناسُقِ والانسجامِ.

فقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٢٢) يُعَبِّرُ عن هذه الحقيقة بشكل واضح، ولذلك فنحن نعزلُ الأسباب، فنتحاشى ما تورَّطَ فيه النصارى، ولا نَدَع مجالًا أبدًا لِأَنْ يدخلَ قلوبَنا محبَّةٌ يُشَمُّ منها رائحةُ الشِّرْكِ، ولو كانت تجاهَ سلطانِ قلوبِنا سيّدنا محمد ﷺ، ونقولُ: "إن الألوهية لله وحده، لا إله إلا هو، وهو المعبود المطلق والمقصود بالاستحقاق، وأما الرسول ﷺ فهو عبدُهُ ورسولُهُ"، وبذلك نحاولُ الحفاظَ على التوازن.

إن الله هو الذي بيده مقاليدُ السماوات والأرض، وهو الذي يُدَبِّرُ الكون كلَّه، وسيدُنا محمد ﷺ هو ذلك السلطان الذي رأى ذلك المعبودَ المطلق، وتلقَّى منه الأوامر، وشاهَدَ بعين اليقين ما نعتقد ونؤمن به بظهر الغيب، وعايَشَه بالفعل، فبرزَ أمامنا باليقين الذي حصلَ له نتيجةَ المشاهدة والمعاينة والمعايشة، فكما أنه آمن بما يدعو إليه من دون تردُّدٍ؛ فكذلك دعانا إلى هذا الإيمان والاعتقاد، فتلك العباراتُ والألفاظُ التي كانت تنطلِقُ وتُقْلِعُ مِن قلبِهِ بقوَّةٍ وَجدَتْ لها صدًى في قلوب كلِّ المؤمنين؛ لاحِظُوا، إنه رغمَ مرورِ أربعة عشر قرنًا من الزمن؛ فإن الأمواجَ التي حصلَتْ جرّاء الجواهر التي ألقاها رسول الله في بحرِ المعرفة؛ قد وصلَتْ إلى ساحل هذا القرن على شكلِ دوائرَ متداخلةٍ.

فالحقيقةُ القدسيّةُ: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، كما أنها تُبيّن أن المعبودَ المطلَقَ هو الله، وأن العبوديّة له فقط، وأنه لا ينبغي الخضوع والخنوع إلا أمامه، فكذلك تَذْكُر لنا أن سيدنا محمدًا ﷺ رسولُه وصاحبُ التشريفات في قصر الكون، فهذا الكلام يُفصِّلُ ما في القلوب من حصّةٍ لله وما فيها من حصَّةٍ لرسول الله ﷺ، ونحن نفهم حقيقةَ "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" بهذا الشكل.

والمؤمن إذا ما اكتسب هذا الإيمانَ، وأسندَ كلَّ شيءٍ إلى القدرة الإلهيّة، أسَّسَ علاقةً بينه وبين كلِّ شيءٍ في الكون، فلن يكون بعد ذلك في روحه وحشةٌ وغثيان وتوحُّش تجاه المخلوقات، بل سيتآخى مع الحَجَرِ والترابِ والطيرِ والشجرِ، وهو ينظر إلى الكون على أنه "مهدٌ للأُخوَّة"، لأن كلَّ شيءٍ جاء من "الواحد"، وراجعٌ في نهاية المطاف إلى "الواحد" أيضًا.

وحينما مرَّ الرسولُ ﷺ ذاتَ يومٍ بجبلِ أُحُدٍ قال: "**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**"(٤٩)، مع أنه قد شُجَّ رأسُه الشريفُ وكُسِرَتْ رباعيتُهُ في أُحُد، وقد فاتَهم نصرٌ محقّقٌ بسبب أن بعضًا من الصحابة الكرام ﷺ لم يكونوا قد أدركوا بَعْدُ مدى الحساسيّة التي تتطلَّبُها "إطاعةُ الأمر"، قال ذلك وكأنه يريد أن يعمِّق المحبَّةَ والصداقة التي أسَّسهما بينه وبين كلِّ الموجودات، فهذا الجوُّ من المحبَّة قد بَعثَ الأمنَ والاطمئنانَ في نفوسِ الصحابة الذين سبقَ منهم الخطأُ، فهذا جانبٌ من القضية، والجانب الذي أريدُ أن ألفتَ الأنظارَ إليه هو العلاقة بين الرسول ﷺ وبين الأشياء؛ فكأن هذا الجبل أصابه نوعٌ من الخجلِ والتوجُّسِ لمَّا استُشهد عليه عددٌ من الصحابة، وكُسِرَت رباعيّة النبيّ الذي هو "الغايةُ من الكون"، فالرسولُ ﷺ بقولِهِ هذا يسلِّي أُحُدًا ويسرّي عنه.

(٤٩) صحيح البخاري، الجهاد، ٧٠، ٧٣؛ صحيح مسلم، الحج، ٤٦٢.

وفي موقف آخر لما ارتجَّ أُحُد، قال الرسول ﷺ: "**اُثْبُتْ أُحُدُ! فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَان**"(٥٠)، فثبت الجبل امتثالًا لأمره صلوات الله عليه. نعم، هذه معجزة من المعجزات الأحمدية على صاحِبِها أفضلُ الصلاة والسلام، وما سردناه آنفًا كان موقفَهُ الدائمَ مما حولَه من الأشياء، و-كما قلنا- إنه كان ينظرُ إلى الكون على أنه "مَهدٌ للأخوَّة"، فحديثُه للشَّجَرِ والحجرِ وكثيرٍ من الموجودات إنّما هو من الحقائقِ الثابتةِ تاريخيًّا، وفي هذا الموقفِ النبويّ درسٌ عظيمٌ جدًّا للمؤمن الذي يستفيد منه ويعتبر به.

وإنما يتأتى الوصول إلى هذه الحقيقة بالتوحيد والإيمانِ بأن كلَّ شيءٍ جاء من "الواحد" وسيرجع إلى "الواحد".

ولذلك يتحدث الرسول ﷺ عن جملةِ "لا إله إلا الله" التي هي ترجمانُ الإيمان، بهذه العبارات المباركة: "**أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**"(٥١)، فهذه الجملة هي أفضلُ ما يبعثُ على الحياة، ويا لَهَا من دلالةٍ ووَقْعٍ وإحاطةٍ! فليس هناك مِن خالقٍ سوى الله الذي حارت العقول في إدراكِهِ وانتَشَت النفوس بذكرِهِ وعبادته.

٢- "الحمدُ لله" والإيمانُ بالملائكة

إننا كما نرى عقيدة التوحيد في هذه الجملة القدسية: "الحمد لله"، فكذلك نرى في الجملة نفسها الإيمانَ بالملائكة، لأن هذه الجملة تشتمل على حمدِ الله تعالى في أسمى أشكالها، والحالُ أن الإنسانَ بجوانِبِهِ الضعيفةِ وذنوبِهِ الكثيرةِ كثيرًا ما يكون عاجزًا عن حمد الله تعالى على وجهٍ يليقُ بعظَمَتِهِ، فهذا يعني أنه لا بدَّ من وجودِ عِبَادٍ لا يعتريهم العصيانُ والنسيانُ ولا يفتؤُون يذكرونَ الله تعالى ويقومون بالعبودية له. نعم،

(٥٠) صحيح البخاري، فضائل الأصحاب، ٥، ٦؛ سنن الترمذي، المناقب، ١٨.

(٥١) موطأ الإمام مالك، القرآن، ٨.

إن لله عبادًا مُكرَمين يسمَّون: "الملائكة"، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون، يقول العارف بالله "إبراهيم حقّي" معبّرًا عن هذه الحقيقة:

الملائكة عبادٌ مكرمون من عباد الله

وعوامّ الإنسِ على عوامّهم فضَّل الله

وإنّ الجملة المقدَّسة "الحمدُ لله" لتَكتَنِفُ في ثناياها تحفيزًا على التشبُّه بالملائكة من حيث العبوديّة والطاعة، فالذين يُريدون أداءَ العبوديّةِ دون عصيانٍ ونسيانٍ عليهم أن يتشبَّهوا بالملائكة، إلا أن هناك لطيفةً وفارقًا مهمًّا؛ وهو أن الإنسان إذا قام بعبوديّةٍ تُشبِه عبوديةَ الملائكة فسيرتقي إلى مقامٍ أسمى من مقامهم، لأن جوانبَ الضعف في الإنسان تكون وسيلةً إلى ارتقائِهِ وسموّه إلى مستوى الكمال، في حين أن مقامَ الملائكة ثابتٌ لا يتغيّر، ومن جانب آخر؛ إن الإنسان خُلِقَ خليفةً في الأرض، وأما الملائكة فهم يؤدّون -في طاعةٍ مطلقةٍ- ما كُلِّفوا بأدائِهِ من الوظائف التي جُبِلوا عليها؛ وقد وَصَفَهم الله بأنهم: ﴿**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ (سورة التَّحْرِيم: ٦/٦٦).

فعلى الإنسان أن يكون -على الأقلِّ- مثلهم ويتحرَّكَ حسب الغاية التي خُلِقَ من أجلِها، حتى يكونَ مؤدِّيًا شكر إحرازِ مقامِ خلافةِ الله في الأرض.

كما أن في هذه الجملةِ القدسيَّة حضًّا على التشبُّه -من ناحية الطاعة- بسائر المخلوقات التي تُطيع أوامر الله، تلك المخلوقات التي تَحدَّث عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ١١/٤١).

٣- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والإيمانُ بالكُتب والرُّسل

إن جملةَ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تَحمِلُ في طياتها الإيمانَ بالقرآن الكريم وسائرِ الكتب.

فنحن نحمد الله ونثني عليه على أنه أنزل علينا القرآنَ الكريم؛ فإننا لم نتعلّم العبودية والثناء والشكر لله وتوقيرَ النبي ﷺ إلا بفضل القرآن؛ فلو لم ينزل القرآنُ لما أمكنَنَا التعرُّفُ على الحمد، ولَمَا كنا نعلم كيف نؤدّي حقَّ العبوديـة لله، فالله أنزل القرآنَ، وبذلك عرَفْنا الله وتَعلَّمْنا كيفية العبوديّة له، فنحن نؤدِّي عبوديَّتنا حسب البرنامج الإرشاديّ الذي أتى به هذا الكتاب، ولـولا ذلـك البرنامج لَمَـا كان هناك فرقٌ بين حركاتنـا وبين ما يُفعل أمام طوطمٍ أو صنمٍ أو تمثال، فلا يمكن إذًا أن نتحدَّثَ عن العبودية والمعبود المطلق بمعزلٍ عن الكتاب الذي يحتوي على برنامج العبوديّة.

ولا مجـال لتصوُّرِ العبوديَّةِ والمعبـودِ المطلَقِ من دون تصوُّر الكتاب الـذي أتى مـن صفة الله تعالـى "الكلام"، والـذي نَزَلَ به الرسـولُ الكريمُ المُطـاعُ الأميـنُ ذو القوَّة المكينُ جبرئيـلُ عليه السلام، وبلَّغه النبيَّ الأُمِّيَّ محمّدًا ﷺ، فالقـرآنُ منـدرجٌ -على هيئة بَذرةٍ- في هذه الجملة القدسـيّة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حيـث إنـه يجعلنا نحمـد الله ويعلِّمنـا كيفيَّةَ حَمْدِ الله تعالى وشـكرِهِ والثناءِ عليه، إن الله أَعَدَّ الكونَ كأنه بستانٌ في غاية الجمال، وجَعَلَه روضةً في منتهى الروعة، وغذَّانا وربَّانَا بمختلف نِعَمِهِ، ثم أراد أن يعرِّفنا بذاتِهِ من خلال هذه النِّعَمِ، وفي سياق تعريفنا بذاتِهِ عَدَّد لنا نِعَمَه في القرآن الكريم الذي هو خطبته الأزليّة والأبديّة، فهل يُتصوَّرُ أن لم يرسـل اللهُ مبلِّغًا يبلِّـغ لنا كتابه، ويَشـرح للمشـاهدين الذين يأتون لمشاهدة قصرِ الكون الأسرارَ المودَعـة فـي هذا المعرض الرائـع، فلا بد من إرسـال الرسـل، وهو أيضًا مندرجٌ في عبارةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فنحن حينما نتفوَّه بهذه الجملة نكون كأننا

نحمد الله تعالى على أنْ أَرسَـل إلينا الرسلَ أيضًا، وسيدُنا محمد الذي هو قافيةُ ركبِ الأنبياء اشتُقَّ اسمه من مصدر "الحمد" أيضًا.

قال الشاعر في مدحِ رسول الله ﷺ:

في الأرضِ أحمدُ، في السماء محمّدٌ

عند الإلهِ مقرَّبٌ محبوبٌ

نعـم، إنـه كما حَمِـد الله كثيرًا، كذلـك هو محطُّ نظـر الله تعالى، وهو الفردُ الفريد.

٤- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والإيمانُ بالآخرة

إن التلفُّظَ بهذه الجملةِ القدسـيَّة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من صميم الفؤاد ومن أعمـاق القلـب، والمواظبةَ على ذلك يُذكِّرنا بالإيمـان بالآخرة أيضًا؛ لأن النعمـةَ التـي لا تـدومُ لا تُعَـدُّ نعمـةً بل هي نقمـة، فالنقمةُ تحوّل مشـاعر الصداقـة والمحبَّـةِ إلى عـداوةٍ ونفـورٍ، فصاحب الرحمـة اللانهائيّة الذي يعرّفنـا بذاتِهِ ويحبّبُها إلينا في الدنيا، يجعلُ عبادَهُ يحمدونه في الدنيا، ولن يُنهِـي هـذا الحمد بقطعِ نعمِهِ بزوالِ الدنيا، بل سـيجعلُ الناسَ يسـتمرُّون بحمـدِه إلـى الأبدِ في حياةٍ لا نهائيّة، فعبادُهُ يحمدونه في حياتهم الدنيويّة، وسـيُبعثون فـي الآخرة وهـم حامدون، وسـيَحمد المؤمنـون ربَّهم حينما يدخلون الجنَّةَ بترحيبٍ من الملائكة وهم يقولون: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**﴾ (سورة الزُّمَر: ٣٩/٧٤).

وهـذا يعنـي أن هـذه الجملة المباركـة كما أنها تشـتمل على خلاصة أمَّهـات القضايـا الأربعة التي هـي المقاصد والأهداف الأساسـية للقرآن الكريـم، فكذلك تشـتمل على جميع الأركان الإيمانيـة وأصناف العبادة، وما دام الحمد سـيدوم في الجنة فإن الاستحقاقَ للجنَّةِ إنما يتأتَّى بالحمد

في الدنيا، ونحن نعرف أن الذي يؤهِّل الإنسانَ للجنة إنما هو العبادة والتقوى، فلا يقول الإنسان: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على الوجه الحقيقي إلا إذا استرشد بالقرآن الكريم، وعاش الإسلامَ على أتمِّ وجه.

ز. كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾

وبعد هذا الاستطراد تعالوا بنا نُعرِّج على معنى كلمةِ ﴿الْعَالَمِينَ﴾، وكنَّا قد تَطرَّقْنا لكلمة ﴿رَبِّ﴾، وسنختم الموضوعَ ببيانِ معنى هاتين الكلِمَتَين من جانبٍ آخر.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ معرَّفةٌ بأل التعريف، فإذا اعتبرناها عهديَّةً يكونُ المقصودُ كلَّ العوالم التي يعلَمها الله، والعالَم مأخوذٌ من العلامة، وسُمي بهذا الاسم؛ لأن العوالمَ -بدءًا من عالم الذرَّات وانتهاءً بنجوم السماوات- علامةٌ ودليلٌ على الله ﷻ، ومن ضمنِها: عالم الأرواح وعالم الأشباح وعالم المثال وعالم البرزخ وغيرها من عوالم كثيرة.

فما أحسن العالَم بهذا المعنى؛ حيث يُعرَف به الله! ويا له من لوحةٍ فريدةٍ يشاهَد فيها الله! وما أحلى تموُّجاتِ الجمالِ الموجودة في الكون بشتّى ألوانِها؛ حيث يُرى فيها الجمالُ والكمالُ لصاحبِ الجمالِ المطلَقِ والكمالِ المطلَقِ! وإحرازُ الجمال والكمالِ أمرٌ مرتبطٌ بالمشاهدة، وذلك إنما يتأتَّى بقلبٍ وعقلٍ مواظِبَين على التفكُّر، إذ لم يُخلَق شيءٌ في الكون عبثًا وبلا جدوى، وإنما يحصلُ الوصولُ إلى هذه الحقيقة بالتفكُّر المتواصِلِ، وهذا الوصولُ هو الذي يفتح أمامَنا آفاقًا جديدةً في طريقِ معرفةِ المولى ﷻ الذي يعرِّف بذاتِهِ بأنه: "رَبُّ الْعَالَمِينَ".

وردَ في الأثرِ أن الجَراد قَلَّ ونَزَرَ في سَنةٍ من سني عمر ﷺ التي وَلي فيها، فسأل عن ذلكَ فلم يُخبَرْ بشيءٍ، فاغتمّ لذلك فأَمرَ راكبًا يَضربُ

إلى اليَمن، وآخَرَ إلى الشام، وآخرَ إلى العراق يسأل هل من الجراد شيءٌ؟ فأتاه الراكبُ بقبضةٍ من الجرادِ، فألقاه بين يديه، فلما رآهُ كبَّرَ ثلاثًا ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "**خَلَقَ اللهُ تَعَالَى أَلْفَ أُمَّةٍ، مِنْهَا سِتُّمِائَةٍ فِي الْبَحْرِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ فِي الْبَرِّ، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَهْلِكُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْجَرَادُ، فَإِذَا هَلَكَ تَتَابَعَتْ مِثْلَ النِّظَامِ إِذَا قُطِعَ سِلْكُهُ**"(٥٢)، فلعلَّ سيدنا عمر ﷺ توجَّسَ -انطلاقًا من هذه الظاهرة- من اختلالِ نظام العالم وقيام الساعة في عهده، وقوله هذا يشتمل على ما حاولنا شرحه آنفًا من التفكُّر والتدبُّر.

ولما مات عددٌ من طيورِ "أبي منجل" التي أوشكَتْ على الانقراضِ أعربَ خبيرٌ غربيٌّ عن قلقِهِ تجاهَ هذا الوضع، ولما سُئِلَ عن سبب قلقِهِ، قال ما معناه: إن كلَّ واحدٍ من العوالم التي خلقَها الصانع الأعظمُ هو من الأجزاء المتمِّمة للكون؛ فإذا نقصَ واحدٌ منها حصلَ نَقْصٌ في الكون؛ فالحيّات والعقاربُ والقملُ والبراغيثُ والطفيليّات التي تتسلَّطُ على الأشجار لكلِّ واحدٍ من هؤلاء موقعٌ في الوجود، والخالقُ أتمَّ الكونَ بها وأكملَ حكمتَهُ بها، ولذلك فأيُّ نقصٍ يعتري أحدًا من هؤلاء يكونُ نقصًا في الكون، وهكذا يتعاقَبُ النقصُ تلوَ النقصِ، ويتَّجِهُ الكونُ نحو النهاية والانقراض، فكما أنَّ نَقْصَ مادّةٍ ضروريةٍ -ولو واحدةً فقط- من جسم الإنسان يؤدِّي إلى حدوثِ أعراضٍ جانبيّة، فيختلُّ التناغمُ والتوازن الموجود في الجسم، ويؤدِّي ذلك إلى نقصِ موادَّ أخرى، ويتوقَّف نموُّ الجسمِ، وتبدو مرحلة الانحدار؛ فكذلك الكونُ الذي هو "الإنسان الأكبر" إذا نقصَ منه أحدُ أجزائه المتمِّمة له ابتُلِيَ بالعاقِبَةِ الوخيمةِ ذاتها.

ح. تعبير ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من الناحية التربوية

والآن لنتناول العبارةَ القدسيّة: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من جانب آخر:

(٥٢) أبو الشيخ الأصبهاني: **العظمة**، ١٧٨٣/٥؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٤١٢/١٢.

فههنا تَرِدُ كلمةُ ﴿رَبِّ﴾ وتعقُبها كلمةُ ﴿الْعَالَمِينَ﴾... فالله هو الذي يربي جميع العوالم ويوصلها إلى الكمال، ويعني هذا أن العوالم كلَّها تحت تربية الله تعالى، وأن ما لا يخضع لتربيته لن يصل إلى الكمال؛ فالعشب الذي لا يتلقى تربيتَه لن يصل إلى الوجود على هيئةِ نبات، والشجرُ الذي لا يُشَذَّب تحت رعايته وفي ظلِّ تربيتِهِ لن يُثْمِرَ، والهواء الذي لا يمرُّ من تربيته لن يتصفّى من السموم، والسكَّر الذي لم يتلقَّ تربيته لن ينفصل عن القصبِ، فتلك التربيةُ هي التي تُخرِجُ موجوداتٍ حيةً مِن أجسام صلدة جامدة لا أملَ فيها، وتلك التربية هي التي تبعثُ الحياة في الأموات فتصيرُ نابضةً بالحياة، وتلك التربية هي التي تُرَقِّي أبسطَ الأشياء فتوصلُها إلى الكمال، فتجعلُها من أفضل الأشياء وأرقاها كمالًا وبراعة، بحيث إنكم تسجدون سجدةَ حيرةٍ وانبهارٍ أمام ما نالها وطالَها من الاهتمام والاعتناء.

إن التربيةَ هي ترقيةُ الشيءِ إلى آخِرِ نقطةٍ يمكنُه الوصول إليها؛ فإذا كانت هناك نبتةٌ تملكُ قابليَّةَ الإزهارِ فآخِرُ نقطةٍ لنموِّها وتطوُّرِها هو إزهارُها، وإذا كانت الشجرةُ من النوع الذي يثمرُ فآخِر نقطةٍ تصلُ إليها هي الإثمار، فإذا لم تثمر الشجرةُ التي من شأنها أن تثمر، فإن هذا يعني أنها لم تَصِلْ في التربيةِ إلى مستوى الكمال...

وكذلك الإنسان له حدٌّ أقصى، وهو ما قد عُبِّرَ عنه في معراج الإنسان الأكملِ ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (سورة النَّجْم: ٩/٥٣)، فَرُقِيُّ المربّي الأكبر وسلطانِ الأنبياء ﷺ إلى هذا المقام العالي يعني وصولَه إلى آخر نقطةٍ في تربيتِهِ على يد الله، ففي هذه اللحظة تفلَّتَ ﷺ عن طَورِ عالَم الإمكان، وخرج عن عالم الكثرة، وأدرك الوحدانية، ثم أحسَّ بالشوق والتوق نحو الرُّقيِّ بمن هم في عالم الكَثرة إلى عالم الوحدة.

إنَّ تربيـةَ كلِّ شـيءٍ تـدلُّ على ربّ العالمين؛ فلو أن إنسـانًا ذهبَ إلى جبلٍ أو وادٍ أو سـاحلِ بحرٍ وشـاهدَ مساحةً من الأرض مغطّاةً بالعديد من أنـواع الزهـور والنبات والأشـجار ولكنها عشـوائيّةُ التوزيـع ولم تخضـع لعمليـةِ إصـلاحٍ زراعيّ وتشـذيب وفلاحةٍ، فمن المحتمـلِ، -إن لم يفكّرِ مليًّا- أن يُسـنِد هذا الأمر إلى الطبيعة أو يقولَ: "حصل هذا الأمر صدفةً"، مـع أنه إذا نظر بموازين العلم فسيرى أنها مـن الله، ولكنه إذا رأى رياضًا ومُروجًـا مغطاةً بشـتى أنواع النبات، غير عشـوائيّة ولا مبعثرةٍ، بل شُـقَّت فيها الطُـرُقُ وفُتِحَتْ قنواتُ الرّي، وقُلِّمَت أشـجارُها، وحوِّطت أطرافُها، ووُضِـع فيها أشباحٌ تُصوِّر إنسانًا لطردِ الطيور والعصافير عنها؛ فهل يُحتَمل أن يُسـنِد كلَّ ما شـاهده ولاحظَهُ إلى الصدفة والعشـوائية ويقولَ: إن هذه البساتين تَشكَّلت بنفسها على سبيل المصادفة؟ كلا!

فكذلـك الله ﷻ، قـد وضـعَ الكونَ أمامنا كأنه روضةٌ منتظمةٌ خضعت للرعاية والإصلاح، حالها كحالِ ذلك البستان الذي فُتِحَتْ فيه قنواتُ الرّيّ وشُـذِّبَتْ أشجارُهُ وشُقَّتْ فيه الطُّرُق، وحوِّطت أطرافُهُ وحُمِيَت بالأسلاكِ الشـائكة، وسـتَرَون وستسـمعُون وستُشاهِدون كلَّ شـجرةٍ تلاقونها، وكلَّ غصنٍ من تلك الأشجار، وكلَّ وردةٍ وزهرةٍ فيها كأنها إنسانٌ يهتفُ باسمِ: "الله".

ولهـذا، فـكأن "غير العقـلاء" تنخرطُ ضمـن "العقلاء" ذوي الشـعور وتصيـرُ أجزاءً مـن "العالمين"، والله ﷻ يُجمِلُ ويجمـعُ الملَك بالإنسـان، والإنسـانَ مـع الشـيطان، والشـيطانَ مـع الجنِّ ويقول: إن الذي يربّي كلَّ شيءٍ، ويوصله إلى آخر نقطة؛ بدءًا من الشجر والنبات والحدائق والبساتين وجميـع الرياض على سطحِ الأرض، وانتهاءً بوجه السماء المرصَّـع بأنواع النجوم، إن الذي يفعل كلَّ ذلك هو الله ﷻ بصفتِهِ "رب العالمين".

وسواء شَرَحْنَا "قابَ قوسين" بالسَّهْمِ والقوس، أو قمْنَا بتوضيحِهِ بشيءٍ آخر؛ فإن هذه المقاييس لن تَرقَى إلى مستوى التعبير عن وضعِ النبي ﷺ، وهو ينظر بإحدى عينيه إلى عالم "الإمكان" وبالأخرى إلى "واجب الوجوب"، وهكذا جَمَع بين الوجوب والإمكان في مقام "الجمع".

والطريقُ مفتوح أمام البشرية حتى تصل في التربية إلى مستوى "قاب قوسين"، وإنها إذا لم تصل إلى هذا المستوى فعليها أن تراجعَ موقفها مرة أخرى، وألَّا تنسى أنَّ الانحطاطَ ربما يوصلها تدريجيًّا إلى ما هو أحطُّ من مستوى البهائم، يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩/٧).

إن الله تعالى يربّي كلَّ الكائناتِ على مراحل متسلسلة، فبتربيته هذه تتكوَّن الجُزَيْئَاتُ من الذرَّات، وتتكوَّن الخلايا من الجزَيئات، ومِن بعد ذلك تتربَّى الخلايا، فمنها تتكوَّن الكائناتُ الحيَّةُ، ومن بعد ذلك تُخلَقُ الأقمارُ والنجوم والأنظمةُ من الذرَّات، ومن هذه الأنظمةِ تُخلق العوالم، والله ﷻ يحدِّثُنا عن هذا كلِّهِ بصفتِهِ: "رَبّ الْعالَمينَ".

١- صيغةُ "العالمين"

إنه ﷻ مربي "العالمين" جميعًا، وذِكرُ "العالمين" بصيغةِ العُقلاءِ -رغم اشتمالِهِ على غيرهم- فيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أن الذين سيدركون كيفيةَ تربيته ﷻ للعالمين ويفهمونها على حقيقتها هم أُولُو الألبابِ، ويُفهم من هذه الإشارةِ أيضًا أن الكونَ إذا لم يكن علامةً على المكوّنِ ﷻ فلا معنى لوجودِهِ.

فالإنسان الذي أَضفَى بشعورِهِ وإدراكِهِ قيمةً على العالَمين، لو كان خارج المعادَلَةِ لَقِيلَ هنا "العوالم" بدلَ "العالمين"، ولكنْ مِن حيث إن الإنسان له أفضليَّة ورجحان في إدراك العالم وفهمِه قيل: "العالمين"، وهناك بجانب الإنسان مخلوقاتٌ ذواتُ شعور كالملائكة والجنّ، ولكنَّها عاجزة عن إدراك أمورٍ كثيرةٍ مما يستطيع "الإنسان الكاملُ" إدراكَها.

وهنا نكتةٌ أُخرى فتنبَّه لها، وهي: أن الكائنات غير العاقلة وغير المدرِكة كأنها قد أُذيبَتْ في بوتقةِ ذوي العقل والإدراك، فتَحول كلٌّ منها إلى ذي عقلٍ وإدراكٍ، فمثلما تدلُّ الحديقةُ على صاحِبِها، يترنَّم هذا الكونُ بالحقّ تعالى، بحيث إنه لو كُتب على وجه السماء كلمةُ: "لا إله إلا الله" بالنجوم، لمَا كانت أدَلَّ على إعلان الحقّ تعالى من معجزة الخلق التي يدل عليها الوجهُ النقيُّ الصافي للسماء والمرصّع بالنجوم الزاهرة العلياء.

فيبدو أن كل الموجودات؛ بدءًا من زهرةٍ في بستان وانتهاءً بوجهِ السماء النقيِّ الصافي، قد خضع لتربيةٍ جادَّةٍ، ولذلك يستمرُّ هذا النظامُ والانتظامُ، وبهذا الاستمرار تُردِّدُ على الدوام وبلسانٍ أبديٍّ: "لا إله إلا الله"، فهذه الموجودات تتحرَّكُ بشعورٍ ووعيٍ وإدراكٍ، والذي يَسوقُها إلى هذه النقطة هو الله الذي يعبِّر عن ذاتِهِ بأنه: "ربّ العالمين" ﷻ.

٢- تربية الإنسان

إن الإنسان إذا لم يخضع لعملية التربية ولم يعامَل معاملةً تؤدِّي إلى إنتاجِهِ الثمرةَ؛ فَسَدَ؛ فكما أن المقصودَ من الشجرة هو الثمرةُ، فكذلك هناك ثمرة يُطلَبُ من الإنسان أن يثمرَها، وهي أن يَرقى إلى "قاب قوسينِ" البشريةِ؛ فهو إن لم يخضعْ في سبيل إثمارِ وإنتاجِ هذه الثمرة إلى عمليَّةٍ تُشبهُ العمليّات الكيميائيّة؛ فسيفسُدُ ويتفسَّخ.

إن مَثَل الفطرة البشرية وبخاصَّةٍ فطرة "الأمة المحمدية" مثل اللبن، فاللبَنُ إن بقيَ كما هو ولم يحافَظ عليه، تخمَّرَ وفسدَ وتكاثرت فيه الفيروسات، ثم لا ينفعُ في شيءٍ؛ فلا يستفادُ من سمْنِهِ ولا مخيضِهِ ولا جبنِهِ، ولكن إذا خضع لعمليَّةٍ كيميائيّة، فسيُستَخْرَج منه السمنُ والجبنُ وأنواعٌ متعدّدةٌ من مشتقّات الألبان، وهكذا الإنسان؛ إذا تُرِكَ تمامًا على حالِهِ سائبًا، ولم يلقَّن الخيرَ، وانقطعَتْ علاقَتُهُ مع العالَمِ الماورائيّ أصبحَ غيرَ نافعٍ بحالٍ من الأحوال، تمامًا كاللبنِ السائب، والرسولُ ﷺ يَذكرُ لنا المناسبةَ بين الإنسان واللبن، فيقول -أثناء حديثه عن عروجِهِ إلى "قاب قوسين"-:

"لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ: أَحَدُهُمَا خَمْرٌ وَالآخَرُ لَبَنٌ، فَقِيلَ لِي: خُذْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقَالَ: هُدِيتَ لِلْفِطْرَةِ، أَوْ أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ لَغَوَتْ أُمَّتُكَ"(٥٣).

ولهذا فالإنسانُ الذي خُلِقَ لِغاياتٍ ساميةٍ -وأيُّ سموٍّ!- إذا لم يَتصرَّفْ وفقًا للتربية الإلهيّة السائدة في الكون، ولم ينخرطْ في سِلك الذين هم على نهجِهِ؛ سقطَ في الدرك الأسفل، وصارَ وقودًا للنار.

وبِقدرِ اقترابنا من الله الذي يُعرّفنا بذاته بأنه: "رب العالمين"، والذي يُطْلِعُنا بفضل هذه الصفة على أَلْفِ اسمٍ واسمٍ من أسمائه، بقدرِ ما نكونُ مؤدَّبين ونرتقي إلى "قاب قوسينِ" الإنسانيةِ؛ وإلا فسنسقطُ إلى دركاتٍ أسفلَ من البهائم.

والتدخُّل الخاطئُ أو الجاهلُ يؤدّي أيضًا إلى فساد الإنسان وانحطاطِهِ، فإن الذي يُربّي العالمين هو الله، لأن الذي خلقَ هذا العالم كُلًّا متكاملًا هو الله، لِنَتَصَوَّرْ أن شاعرًا كَتَبَ قصيدةً مؤلّفةً من عشرين بيتًا، ثم أتينا

(٥٣) صحيح البخاري، الأنبياء، ٢٤، ٤٧؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٧٢.

وأضفنا إلى هذه القصيدة بيتين من دون أن نقرأها ونطَّلِعَ على محتواها، ثم عرضناها على شخصٍ عامّيٍّ ليس له من الشعرِ نصيبٌ أو سابقة؛ فكونوا واثقين من أنكم ستسمعون منه كلامًا يُعرِب فيه عن عدمِ تناغُمِ هذين البيتين مع سائر الأبيات؛ إذ من المحقَّقِ أنه سيكون هناك عدمُ انسجامٍ بين هذين البيتين وبين سائر الأبيات، وهكذا الكون تمامًا؛ فهو مثل القصيدة، ولكلِّ بيتٍ منه علاقة بالأبيات الأخرى، والإنسانُ أيضًا قد نُظِمَ كبيتٍ من ضمن سائرِ الأبيات، وهو جزءٌ من الكلِّ الذي يُسمَّى "الكون"؛ فلا يمكن أن نَتصوَّرَ الكونَ بدون الإنسان ولا أن نتصوَّرَ الإنسانَ بمعزلٍ عن الكون، فلا بدَّ أن يكون للإنسانِ موضعٌ يخصُّهُ ضمن تربيةِ جميع الكون، وبتعبير آخر: لا بدّ من تربية الإنسان وفقَ القوانين السارية في الكون، ولكن الواقع هو أن البشريَّةَ ما تزالُ تَجهَل الطبيعةَ والكونَ، ولا تَعْرِفهما على الوجه الكامل، ويقصُرُ عقلُها عن العلاقة بينهما وبين عالم الروح والعقل والمشاعر، ولا تُدْرِكُ مفهومَ ما نسمِّيه: "الوجدان"، الذي هو سرٌّ دقيقٌ يكفي لأن يكون بمفردِهِ دليلًا على "واجب الوجود"، وبالتالي؛ فما يُصدِرُهُ الإنسانُ من الأحكام الخاطِئَةِ حول ذاتِهِ لن تكون مختلفةً عما يُصْدره من الأحكام حول الكون والوجود، بل ستكون أشدّ خطأً وأكثر فداحةً.

٣- المبادئ التربويّة البشريّة والمشهدُ المرير

منذ أمدٍ بعيدٍ تدخَّلَتْ البشريَّةُ في أمر تربيتِها، وألَّفَتْ في هذا المجال كُتُبًا في علمِ النفسِ، وقدَّمَتْها للأجيالِ تحت اسم: "التربية"، وفي تلك الحقبة قامَ علماءُ النفسِ والتربيةِ الذين تصدَّوا لتربية الأجيال بالتفوُّهِ بعباراتٍ كبيرةٍ تحتوي على ادِّعاءاتٍ عظيمةٍ عملاقة، وكانت تعبيراتُهم ومقولاتُهم -مِن علوِّ نبرَتِها- تُخيِّلُ للكثيرِ من الناس أنه لن يُمْكنَ تربيةُ

الأجيال إلا بتطبيقِ ما يقولون، في حين أن كلَّ سرِّ جاذبيّةِ مقولاتهم وخلابتِها كان منطويًا في غموضِها.

إن ما ربَّوه من الأجيال ها هم أمامنا؛ فنحن أمام جيلٍ يعادي قرآنَهُ ومربِّيَه وأمَّه وأباه وجدَّه وماضيَه وجذورَه ونظامَه بل كلَّ الكون، فكلُّ العالم الذي يتخبَّطُ في نفسِ الدوَّامةِ وفي نفس المأزِقِ يُثبتُ بدلالةِ الحال أنَّ التربيةَ الحقيقيَّةَ هي تربيةُ ربِّ العالمين ﷻ، ويبصُقُ في وجهِ الذين قالوا: "رَبَّيْنَا"، ويوبِّخُهم على هذه الفريةِ الكبيرة.

فالتدخُّلُ الخاطئُ في الجيل فَرَطَ عِقدَه، والأيدي والعقولُ الجاهلةُ لعِبَتْ بغذائِهِ فَسَقَتْهُ السمَّ باسمِ التربية، وعصابةٌ متجبِّرةٌ من القاصرين في العلمِ والفِكرِ والمشاعِرِ قامرت بالأجيال واتخذَت منها ذرائع لإشباع صَلَفِهِم ورغباتهم، وتصدَّرت لإجراءِ التجاربِ على الإنسان واتخذته رقعة للاختبار وحقلًا للتجارب، وهذه التجاربُ المتتاليَةُ أدَّت إلى عديد من الأمراض السارية، فكم من دول وشعوب انهارت فلم يكن منهم مَن يشعر ويحسّ ويأبَهُ بشيءٍ، والحقيقة أنه لم يكن من المنطقي أن نتوقَّع أيَّ جدوى من الذين يتناولون الإنسان وكأنه مصنَع الفضلات أو ماكينةٌ متراكمة من الأدوات. نعم، إن الذي يَكمُن وراءَ كلِّ صراعاتهم الاقتصادية والسياسية هو هذه النظرة الخاطئة إلى الإنسان، فمفهوم الإنسان قد تردّى إلى ما هو عليه اليوم على أيدي هؤلاء الذين اتخذوا أهواءهم النفسية آلهةً، ونظروا إلى كلِّ شيءٍ وقوَّموه في مرآة نوازعهم النفسانية التي هي جوانب ضعفهم، وإذا لم تَرجع البشرية إلى أصلها وفطرَتها، ولم تضعْ حدًّا لهذه الوتيرة، فلن تكون عاقبتُها محمودة.

ولن تنجو الإنسانية من هذه الانحرافات إلا إذا أدركت العلاقةَ بينها

وبين روحِها وقلبِها وأحاسيسِها، وفهمت العلاقةَ بينها وبين ربِّها، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يشرحَ ويُبَيِّنَ لنا تلك العلاقة إلا القرآن الكريم وتفسيرُه العملي المتجسِّدِ ومثالُه الفريد الذي هو سلطانُ الأنبياء ﷺ...

إن رُقيّ الإنسان إلى أوجِ الكمالِ وبلوغَهُ "قاب قوسَي" فطرتِهِ لن يتحقَّقَ إلا بتربيَتِهِ بالتربية الإلهية، وهذا النوعُ من بلوغ الكمالِ سيَجِدُ معناه وصبغَتَهُ الحقيقيَّة في دستورِ التخلُّقِ بالأخلاق الإلهيّة، فالإسلامُ يوصي الإنسان بهذه الأخلاق، ولا ينحصِرُ في إطار التوصية بل يأخذُ بيدِهِ ويوصلُهُ إلى بدايةِ الطريق الذي يؤدِّي إلى هذا المقام، وهو الصراط المستقيم الذي هو الطريق القرآنيّ.

والحالُ أن الأنظمةَ البشريَّةَ مهما حاولَتْ أن تُضْفِي على المسألةِ طابَعًا عِلميًّا فإن كلَّ محاولةٍ منهم باسم المداواة ليست إلا عبارةً عن ضربةٍ قاسية تَلقَّاها الإنسان.

وكما هو الأمرُ في المَثَلِ التركيّ الذي يقول: "إنَّ السارقَ حينما يتحدَّثُ عن شجاعتِهِ ومهارَتِهِ يفضحُ سرقَتَهُ"، فكذلك هؤلاء الذين هم "سُرَّاق الواجهات" حينما يُعرِبون عن شجاعتهم ومهارتهم فإنما يذكرون سرِقاتهم، وسيُعرَضُ العصاة والأشقياء والفوضويُّون والإرهابيُّون في إذاعاتهم وعلى شاشات تلفزيوناتهم وسيقدَّمون للشعوبِ كأنَّهم منقِذون، ففي حينِ يبجَّل العاصي والفوضويّ في إذاعاتهم وتلفزيوناتهم؛ يقومُ المفكِّرون والتربويُّون العالميُّون والمؤسَّساتُ التربويَّة العالميّة ويسمون هذا الأمر "تنويرًا".

إن التربيةَ تُقَوَّمُ بحسب آثارها، فها هي الشوارع، وها هي التربية التي قدَّمَها أهل هذا العصر؛ إن ما يُقترَف في أيّامِنَا في بضع دقائقَ؛ ما كان يستطيعُ أيُّ وحشيٍّ في العصورِ القديمة أن يفعَلَهُ طوالَ حياتِهِ؛ فإن أكثرَ ما

كان يستطيعُ أوحشُ إنسانٍ أن يقتلهم ما كان يتجاوزُ عشرةَ أشخاص، أما في أيّامنا هذه فيُقتَلُ آلاف من الأشخاص مرَّةً واحدة بالدبَّابات والطائرات والأسلحة الكيميائية وأسلِحةِ الدمارِ الشامل، والأدهى والأمرُّ في هذا الأمر أن الإنسانيّة قاطبةً تقفُ موقفَ المتفرّجِ على هذا المشهدِ المروّعِ الذي هو عبارة عن دمارٍ شاملٍ، من دون أن تحسّ بشيءٍ أو تنبسَ ببنتِ شفة، وكما يقول الشاعر المهموم محمد عاكف ﷺ:

لا فيكَ إحساسٌ ولا حراكٌ ولا أوجاع
ولا أجد لك عزمًا وتصميمًا على النخلص
هل أصبحتَ جيفة...؟!

إن البشرية قاطبة تتفرّج، في صمت وسكون، على هذا الدمار الهائل، ومن حيث إنه لم تُوقَظ الجواهرُ المكنونة في الإنسان؛ فإن هذا الكمّ المتراكِمَ من فرضيَّات العلوم والفنون والتقنيَّات جعلَتْهُ يتشكَّكُ حتى في ذاته أكثر من ذي قبل، وما زادته التقنيَّات الحديثة إلا مضاعفةً في طاقتِهِ التخريبيَّة، وحوَّلَتْه إلى وحشٍ كاسر، مما جَعَلَنا نترحَّمُ على السفّاحين في العصور الغابرة. نعم، إن البشرية في أيامنا هذه قد جمحت نزواتُها وجوانبُ ضعفِها النفسية بحيث يبدو أنه لم يعد بالإمكان السيطرةُ عليها، وغدَا من الصعوبة بمكانٍ أن تنتَصِحَ أو تنصاعَ، فإنها لُقِّنَتْ دائمًا وبشكلٍ مستمرٍ ضرورة البحثِ عن إشباعِ النوازع النفسانيّة والتوجُّهاتِ السلبيّة كأنها هي الغايةُ والحكمة الأساسيّة من خلقِ الإنسان.

فكما أَفسد الغربُ أجيالَه على هذه الشاكلة؛ فهو كذلك يحاول أن يؤدي بالعالم الإسلامي إلى العاقبة نفسها، ولا يمكن أن يقال إنه لم ينجح في ذلك، والحقيقة أن الكبرَ والغرورَ وأمثالَهما من الأمور التي تُلَقَّن لإنساننا اليوم زادت من طغيانه وتَفَرْعُنِه، وجعلتْه لا يراعي أيَّ قيمةٍ

من القِيَمِ، ومما ساعدَ على تفاقمِ هذه المشكلةِ أربابُ المناصِبِ الذين لا يملكون الكفاءةَ والأهليَّةَ لمناصبِهم؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا.

والحياةُ السياسية في وضع يدمي القلب ويُرثَى لها، فالفكر "الميكافيلي"(٥٤) جَعَلَ المصلحة الشخصيّة محرابًا، وصارت الإنسانيةُ عبدًا وخادمًا لمن يقدِّم لها منفعة، فهذه الفكرة من الخطإ بحيث إن صاحبَها ينظرُ إلى مَن هو مُوالٍ له كأنه مَلَكٌ ولو كان في واقعِ الأمر شيطانًا؛ في حين أنه يرى مخالفَهُ ليس إلا شيطانًا ولو كان في الحقيقة مَلَكًا، فهذه النظرة السقيمة هي من نتاج التربية التي تُقدَّم في يومنا، وهذا هو الواقعُ المريرُ.

إن الذين يُفْسِدُون النسلَ معاييرُهم على حسب منافعهم، فمِن الصعب -حسب معاييرهم- التمييز بين الصالح والطالح، وإن الله تعالى قد مَنح الإنسانَ أوفر الحظوظ حينما تحدث عنه بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٣٠)، حيث جعله "خليفة"، فالإنسان سيتصرَّف في الكون وكيلًا عنه تعالى، ويكون بروحه مرآةً له، ويدلُّ -بإرادته- على الله ﷻ بالانسجامِ مع الحركة الكونيَّة العموميّة، فخلافةُ الله تتضمَّنُ هذه المعاني، ولكن فسادَ النسل يحقِّق الوضعَ الذي تَخوَّفت وقَلِقَت منه الملائكة، حيث قالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٣٠)، فالملائكة كانوا يتخوَّفون، وكأنهم رأوا هؤلاء الفوضويّين الذين يفسدون النسل، ولذلك أعربوا عن قَلَقِهم هذا.

---

(٥٤) **الميكافيلية**: مبدأ في السياسة، والشخص الوصولي يُدعَى شخصًا ميكافيليًّا، نسبةً إلى "نيكولو ميكافيلي"، وهو: كاتب ومفكر إيطالي وُلِدَ في فلورنسا (١٤٦٩-١٥٢٧م) وقد وضع أهمَّ أفكارِه حول مفاهيم السياسة والحكم وإدارة شؤون الدولة في كتابه المعنون بـ"الأمير" الذي ألَّفَهُ للأمير الإيطالي "لورنزو" فقدَّمَ له نصائح يرى البعض أنها تحمل معاني النذالة والانتهازية وعدم احترام حقوق الآخرين، ويَعتبرُ حتى قتل الأبرياء أمرًا طبيعيًّا من الممكن فعلُه من أجل الحِفاظ على الملك أو الحكم، وله تُنْسَبُ الجملة الشهيرة "الغاية تبرِّرُ الوسيلة"، وإذا أُطلقَ مصطَلَحُ الفكر أو السياسة الميكافيليّة فهو يعني: تبرير فعل أيّ شيءٍ والاستهانة به من أجل تحقيق الغاية والهدف، وهذا معنى "الغاية تبرر الوسيلة". (المترجم)

ط. سير الكون نحو الكمال، وتعبيرُ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

ويمكن للقارئِ حينما يقول: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أن يستحضِرَ المعاني التالية: إن لله أسماءً تتجلَّى في جميع أرجاء الكون، وحسبَ هذه الأسماء فإن كلَّ شيءٍ يسير سيرًا حثيثًا نحو الكمال؛ فالنبات والحيوانات والجمادات تتحرَّك كلُّها باشتياقٍ عميقٍ وتنساقُ صوبَ الكمال، والأحجار تتفتَّتُ فتصيرُ ترابًا، والتراب يُداسُ وينسحِقُ تحتَ الأقدام، ويحتضن النباتَ ويكون له أصيصًا، والنباتُ يفدي الحيوانَ بنفسه فيرتقي إلى مستوى الحيوانيَّة، والحيواناتُ كذلك تركضُ مسرعةً وتسعى جاهدة لترتقي إلى مستوى الإنسانية، وهكذا نلمَحُ في كلِّ شيءٍ ميلًا نحو الكمالِ، وفي النقطة التي يتوقَّفُ عندها السير إلى الكمال يبدأ الانحلالُ والزوالُ.

وفي سياق هذا السَّيرِ الحثيثِ العموميّ نحو الكمال فالله تعالى بصفته: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد من بني الإنسان أن يشاركوا في هذه المسيرة بإرادتهم، فهل يُعقل أن يتوقَّفَ الإنسان في حين تسرع كلُّ العوالِمِ نحو الكمال، وهل سيبقى الإنسانُ غيرَ مثمرٍ وقَزَمًا في حين أن العوالم الأخرى تُعطي ثمارها، فالشجر يثمرُ، وأما الإنسان فإن عجزَ عن أن يعطي ثمرَ "معرفة الله" ولم يُودِعها في قلبه، ولم يضحِّ بالدنيا وما فيها في سبيله تعالى، فهذا يعني أن هذا الإنسان أصبحَ فاسدًا غير مُثْمِرٍ، والحالُ أنه مرآةٌ جامعةٌ لجميع الأسماء الإلهيّة؛ فكلُّ اسمٍ من أسمائِهِ مندرجٌ في ماهيَّتِهِ على هيئةِ خطٍّ أو نقطة، ثم إن الله تعالى يطلبُ من الإنسان أن يُظهِرَ بإرادتِهِ الإنسانيّة ما أودعه ربُّه -بإرادَته الربانية- في ماهيته من الجواهر من أمثال: الكرم والإحسان والعقل والتفكير، بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل إرادَتَه في سبيل أن يكونَ كريمًا مُحسِنًا عاقلًا متفكِّرًا، فقد أُودِعَت في الماهية المعنوية للإنسان عناصرُ ومعادن إذا أُشعلت واستُخدِمَت حسب

المعاييـر الإلهيـة؛ فإنها سـتَخرُج على شـكلِ ألماسٍ أو فضَّـةٍ أو ذهبٍ أو ياقوت، لكن إذا تمَّ إشعالُها بالفتائِلِ البشريَّةِ فسيتحوَّلُ هذا الماسُ فحمًا.

التربيةُ وأفقُ "الإنسان الكامل"

كمـا ذكرنا قبـلُ إن كلمةَ "ربّ" مصـدرٌ، والله تعالى مـربٍّ بحيث إننا لا نـرى التربيةَ إلا عنده، وكأنـه -إن صحَّ التعبيرُ- هو التربيةُ ذاتُها، وعلى الإنسان أن يُحرِزَ في التربية مقامًا من رآه ذَكَرَ التربيةَ، فمن نَظَرَ إلى عبوديَّةِ النبـيِّ الـذي بلـغَ في التربيةِ أقصى المدى، يكون كأنَّهُ يشـاهِدُ الله، قيل في حقه: "يَا مَنْ إِذَا سَـجَدَ تَجَلَّى اللهُ عليه"، إذ مَن رآه في تعظيمِه وتكريمِه لله قال: "إن الله موجودٌ، وها هو ذا فؤادُهُ ﷺ يرتجفُ مرتعِدًا بين يديه ﷻ".

فالإنسان إذا رُبِّيَ بمثل هذه التربية يصيرُ كأنه هو عينُ التربية، فإذا بلـغ هذا المسـتوى فإن تأثيرَه سيُلمَس في محيطِهِ؛ من أقربِ دائرةٍ إلى أبعدها، وسـتتأقلَمُ الأسـرةُ والمجتمعُ مـع هذه العقليَّةِ شـيئًا فشـيئًا، وسـيتوحَّدان معهـا، وسـتجدُ الأقـوالُ التي تُسـرَد آذانًا صاغيـةً، وسـتُتلقَّى المقترَحات بالقبول، وسـيَحظى الإنسـانُ بالوصولِ إلى الغاية من خَلقِـهِ، فيكونُ مرآةً مجلوّة لكلِّ الأسـماء الإلهيّة التي تتجلَّى وتظهر في ماهيّته، والحقيقة هي أن الله ﷻ خَلـق الإنسـانَ ليكونَ مرآةً له، وهـو إنما يُحرِزُ القربَ الحقيقي من ربه إذا صار مرآة لأسمائِه تعالى، وهذا يعني حظوتَه بتربيةِ الله تعالى.

وإنـه لمن السـذاجةِ الأملُ فـي فلاحِ الأجيـالِ دون إخضاعِهم لعمليّة تهذيبٍ وتشذيب، وإذا كنا نتوقَّـع منهم الفلاح والصلاحَ، فلنحاوِلْ تحقيقَ ذلك بطريقِ التوجُّه إلى الله بجهودِنا وإرادَتِنا.

وإن أردنا تأسـيسَ نظامٍ كالذي قال به الرسول ﷺ وأسَّسَهُ وحقَّقَهُ، فلا بـدَّ لنـا أن نفعلَ كمـا فعل؛ فهو في بدرٍ رفـعَ يديه متضرّعًا وقـال: "**اللهُمَّ أَنْجِـزْ لِي مَا وَعَدْتَنِـي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ**

مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ"[٥٥]، فهو قد أصرّ في الدعاء والالتِجاءِ إلى أن سقطَ رداؤُه مِن عَلى منكِبيهِ من دون أن يشعرَ بذلك، وهو ﷺ إلى هذه المرحلة قد فعلَ بإرادته واختياره كلَّ ما استطاع فِعلَه بكلِّ هِمَّتِه، وقد ربَّى جماعةً بلغت أشدَّها وتربَّعَتْ على عرشِ النضجِ والقَوَامِ، ومِن بعد ذلك توجَّه إلى ربِّهِ وتضرَّعَ إليه وفوَّضَ أمرَه إليه، والله تعالى استجاب لحبيبه وأيَّده، وإذ بالملائكة بدأت تصولُ وتجولُ بخيولِها في ذلك الميدان؛ معلنةً أنَّها في خندقٍ واحدٍ مع أولئك الناس.

فتوجُّهٌ مثلُ هذا هو الذي سيُنتِج سياطًا بأيدي الملائكة تنزلُ على رؤوسِ نفوسِنا الأمَّارة بالسوء، وعلى هامات الناس المُتَشَيْطِنين الذين يعملون لأجل النفوس الأمارة بالسوء، واللهُ تعالى سيتولّى الأمر مباشرة، وما دمنا نتحرك وفق تربيته تعالى فإنه سيخلق نتائج طيّبَةً.

إن التربية خارج القوانين التربويّة لله إنّما هي تربيةٌ قاصرةٌ، إذ التربيةُ التي لا تُوصِل إلى الكمال تربيةٌ ناقصة، فلا بدَّ من كَونِ التربية كُلًّا متكامِلًا؛ فأيُّ طريقٍ لا يؤدِّي إلى آخر نقطةٍ يَصِلُ إليها الإنسان فهو طريقٌ باطلٌ، وهذه النقطةُ هي رُقيُّهُ في الصدقِ إلى أوجِ الكمال وبلوغُهُ "قاب قوسين".

أيّها الإنسان، إن لك أيضًا "قاب قوسين"، وهو أن تكونَ إنسانًا كاملًا، ويا أيها المؤمن! إن "قاب قوسين" بالنسبة لك هو أن تَفنَى في الله ورسولِه وكتابِه، وتذوبَ وتضمحلَّ من حيث جوانبُك النفسانيّة.

(٥٥) صحيح البخاري، المغازي، ٤؛ صحيح مسلم، الجهاد، ٥٨ (واللفظ لمسلم).

آيةُ ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أ. ما في تكرار اسمي: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من الحِكَم

إن هذين الاسمين اللَّذَين وردا في البسملةِ قد تكرَّرَ ذكرُهُما مرَّةً ثانيةً في الفاتحة، ويمكن أن يُذكَر لذلك من الحِكم ما يلي:

١- إذا تناولْنا المسألةَ من الناحيةِ الفقهيَّةِ نقول: إن اعتَبَرْنا أنَّ البسمَلَةَ ليستَ آيةً من الفاتحة فَذِكْرُ هذين الاسمين هنا لا يُعتَبَرُ تكرارًا.

٢- إذا نظرنا إلى المسألة من زاويةٍ أخرى نقول: إن للهِ مِنَ الأسماءِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وهو تعالى بعدَ أن عرَّفَنا بذاتِهِ باسمِهِ: "الله" و"ربّ العالمين"، يتدارَكُ الإنسان برحمتِهِ بِذِكْرِ الاسمين "الرحمن الرحيم"؛ لأنه من المستحيلِ على بني البَشَرِ أن يدركوا ويحيطوا بتجلِّي "الواحديّة" للذات الإلهيّة؛ ذلك التجلّي الذي يَظهر في عموم الكون، فبعدَ ذكرِ هذا التجلّي العظيم الذي يُبْهِرُ العقلَ؛ لَفَتَ الأنظارَ إلى التجلّيات التي يدركها ويفهمُها كلُّ فردٍ في مرآةِ ذاتِهِ، فذُكِرَت الرحمةُ، فبفضل هذين الاسمين يدرِك الإنسانُ ويَفهَمُ في مرآةِ روحه معنى الكون وما يدل عليه الكونُ من الذاتِ الإلهيّة.

٣- إنَّ ذكرَ هذين الاسمين الجماليَّين بعد لفظ الجلالة: "الله" يحملُ معنى الترغيب بعد الإنذار والترهيب، وهكذا القرآن؛ فكلَّما وردَ فيه ترهيبٌ أتى من بعده ترغيب، وكلَّما ذُكر ترغيب أعقبَهُ ترهيبٌ، وهكذا دواليك في النسَقِ القرآنيّ.

وقولُه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (سورة الْحِجْر: ١٥/٤٩-٥٠) مِن أحسن الأمثلة على ذلك؛ حيث جمع بين الأمرين، وفي حديثٍ يرويه أبو هريرة ﷺ يقول رسول الله ﷺ: "لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ فِي الْجَنَّةِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنطَ مِنَ الْجَنَّةِ أَحَدٌ"(٥٦)، ففي هذا الحديث نرى الجمع بين الترغيب والترهيب.

أجل، بينما يذكُر اللهُ تصرُّفاته العموميَّة في الكون بذكر اسمه "ربّ العالمين" يذكُرُ أيضًا تصرُّفَهُ الخصوصيّ في الإنسان وأنّهُ لم يهملْه أبدًا؛ كذلك حينما يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (سورة الأَنْبِيَاء: ٢١/١٠٤) ويتحدَّثُ عن طيّه للسماوات مثل صحائف الكتب؛ يذكر تصرُّفَهُ الخصوصيّ بقوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (سورة الأَنْفَال: ٨/٢٤) وقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق: ٥٠/١٦).

فهو ﷻ، بذكره ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ في سورة الفاتحة يكون قد بَعث الأُنسَ والطمأنينةَ في قلب العبد الذي أحسَّ بالرهبة والرعب عندما قرعَ سمعَه لفظُ الجلالة واستَحضر تصرُّفاتِ الذات المستجمِعة لجميع الصفات الكماليّة، فكأنه يهمسُ بهذين الاسمين في أذن الإنسان المعاني التالية:

لا تَخَفْ إلى هذا الحدّ، فالأمرُ أساسُهُ مبنيٌّ على الرحمة؛ فهو قد خلَقَكُم برحمتِهِ، وأعدَّ لكم كلَّ متطلَّباتِ حياتِكم، ولكن الدنيا لن تُشْبِعَ رغباتكم، واللهُ أعدَّ لكم في الجنَّة مشاهدةَ "جمالٍ باقٍ سرمديّ"، فهو برحمتِهِ سيُيَسِّرُ لكم هذا أيضًا، فما أقدسَ وأبجلَ هاتين الكلمتين اللتين تبعثان في صدر الإنسان بردًا وفي فؤاده أُنسًا بعدما كان يعيش حالةً يعاني

(٥٦) صحيح مسلم، التوبة، ٢٣؛ سنن الترمذي، الدعوات، ٩٩.

فيها من الوحشة والوحدةِ، وكم هو من الضروري ذكرُ هذين اللفظين بعد لفظَي: "الله" و"رب العالمين".

وأكثر ما تتجلَّى رحمة الله تعالى ناصعةً جليّةً، في الحالات التي يفرِّج فيها فارجُ الهمِّ وكاشِفُ الغمِّ عن المهمومين والمغمومين الذين تعرضوا للبلايا والآفات والمصائب فانكسف بالُهم وكُسِرَ خاطرُهم وخارت قواهم، فيقدِّم لهم ما فيه خيرُهم وصلاحُهم، فالذي يعبّرُ عن هذه الكيفيّة هو: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ب. معنى رحمانيّة الله ورحيميَّتِه

إن كلمتَيْ: ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ تحملان في طبيعتِهما "رقَّةَ القلبِ" و"ميلَ النفس"؛ بمعنى أن الذي يتَّصِفُ بالرحمة يكون لديه رقّةٌ في القلب وميلٌ في النفس تجاه من يحتاجون للرحمة، فهذه الرقَّةُ والميلُ هي التي تبعثُ الراحمَ وتسوقُهُ إلى التفكيرِ في المبادرة نحو هؤلاء المحتاجين، ومن هنا فإن بعض العلماء لم يرَ من اللائق نسبةَ رقَّةِ القلبِ وميلِ النفس إلى الله ﷻ، وفَسَّر الرحمةَ بما يؤولُ إليه هذا الأمر وقال بأنها: "إرادةُ الله تعالى الخيرَ في حقِّ الخلقِ"، باعتبار أنها سببٌ باعثٌ على الإنعام، ولنتناول المسألةَ بشيءٍ من التفصيل:

إن ما نتَّصِفُ به -نحنُ البشر- من الرحمة يظهرُ على شكلِ الإشفاق على الآخر وميل النفس؛ فحينما نرى شخصًا مهيضَ الجناح مظلومًا حزينًا مكدَّرًا فإن قلوبَنا ترقّ له ونميلُ نحوه عفويًّا دون تكلُّفٍ أو إرادة، فمن هنا رأى بعضُ المفسِّرين أنّه ليسَ من المناسِبِ نسبةُ مثل هذه الحالة إلى الله ﷻ، إذ رأوا فيها نوعًا من الضَّعْفِ، فقالوا: إن المرادَ هو لازمُ ميلِ النفسِ، إذ ميلُ النفسِ يستلزمُ "إرادة الخير" التي هي أساس "الإنعام"؛ فـ"الرحمن الرحيم" يعني: "الذي يريد الخير والإحسان في حقِّ الخلقِ".

ولكن هذا التوجيه يقتضي منا التأويل بالطريقة نفسِها في سائر الصفات الإلهية؛ فمثلًا إن لله صفتَي "السَّمع" و"البَصَر" ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشُّورَى: ٤٢/١١)؛ والحال أن الإبصار والسمعَ يتحقَّقان عن طريق بعضِ الوسائط، فلا يليقُ أيضًا إسنادُهما إلى الله ﷻ، فإبصارُنا نحن يتحقَّقُ بواسطةِ العينين وبمساعدة أشعَّةِ الشمسِ وفي مسافةٍ معيَّنَةٍ، وهناك أشياء نُبْصِرُها وأشياء لا نبصرها، وكذلك الحال في سمعِنا؛ فهو إنما يتحقَّقُ مرتبِطًا ببعضِ الأسباب، فإذا تناوَلْنا الأمرَ بهذا الشكل فلا يجوزُ إسنادُ السَّمْعِ والبَصَرِ إلى الله ﷻ.

إذا تناولنا الأمر على هذه الشاكلة نُضطرّ إلى حملِ كثيرٍ من أسماء الله الحسنى على المجاز، وهذا يؤدِّي إلى نوعٍ من التكلُّفِ مما يستلزِمُ تأويلَ ألفِ اسمٍ واسمٍ من أسمائِهِ تعالى، بل إننا نقول: ففي مقابل ما لدينا من الميلِ النفسيّ ورِقَّةِ القلبِ توجدُ لديه تعالى هذه المعاني في قداسَتِها ونزاهَتِها؛ وسمعُه وبصرُه أيضًا مختلفان تمامًا عمَّا لدينا، ولذلك حينما نقول: "الرحمن، الرحيم، المؤمن، المهيمن، الرزاق"... إلخ؛ فإننا نقول: إن المقصود حقيقة هذه المعاني عند الله تعالى مقدَّسةً منزّهةً عن النقائصِ والمستحيلاتِ في حقِّهِ تعالى، بعيدةً عن صفاتِ الحدوث وحالِ المخلوقات.

ج. ألطافٌ تتجلَّى في أفقِ الرحمانيّة والرحيميّة

إن الله تعالى يخلقُ الأشياء من العَدَمِ، فيأتي بها إلى ساحة الوجود، وكأنه يقول: سواء شئتم أم أبيتم، إنني أُوجِدُكم برحمانيّتي وأُديمُ وجودَكم وحياتَكم بالأمور التي لا بدَّ لكم منها، ثم إني برحيميَّتي أمنحُكم الإرادةَ حتى أُظهِرَ كمالَ رحمانيَّتي، وسأُجازيكم في الآخرة على حسبِ استخدامِكم لإرادتكم، وأنتم باستعمالِكم لإرادتكم ستتهيَّؤون للاستفادة

مـن نِعَـمِ الآخرة، بشـرط أن لا تتَّبعـوا أهواءكم وغرائزَكـم ولا تُخرِجُوها خارجَ إطارِ رضايَ، وإلا فاعلموا أنَّ جزاءكم هنالك سيكون شديدًا.

فـالله تعالـى حينما يُعرِّفنـا بذاتِهِ بأنـه: الرحمن الرحيم، فنحـن بِدَورِنَا نسـتنبطُ مِن وراء الرحمانية والرحيمية معانيَ شـتى، ولنوضّـح هذا بمثال: لنتصـوَّرْ أن هنـاك قصـرًا فخمًا في غايـة الروعة والجمـال، وأن في ذلك القصـرِ أنواعًـا مختلفـةً مـن الكائنـات يتنزَّهـون ويتجوَّلـون فـي أرجائِهِ؛ وبالمقابل هناك مَن يسـتقبل الضيوف يسـتضيفُهم ويُكْرِمُهم باسم صاحب القصر وبالنيابة عنه، وهذا الشـخصُ قد زُيِّن من رأسِـهِ إلى أخمصِ قدميه بشـتى أنواع الشارات والميداليَّات، بحيثُ إن لسـانَ حالِهِ يُفصحُ إفصاحًا بيّنًا بأنه أعزّ موجودٍ لدى صاحب القصر، فحيثما حلَّ وارتحلَ يَلقى حسنَ الترحيـبِ والاسـتقبالِ، ويبادِرُ كلُّ من يقابلُه إلى تلبيـةِ أوامرِهِ على الفور، وإلى الانحناءِ لهُ في احترام بالـغٍ، وحينذاك نعرف أنه هو الأعزُّ والأشرفُ وذو المكانـة الأكبر لدى صاحـب القصر، وأنّه هو أكثر من يحظَى برحمةِ صاحبِ القصر وشفقتِهِ...

فكذلك الكونُ بمثابة قصرٍ مهيبٍ مزيَّنٍ، والإنسـان هو أكرمُ وأشـرفُ مـا فـي ذلك القصر، وأكثرُ من حاز رحمانيَّـة الله ورحيميَّتَهُ على أتمّ وجهٍ، فليس هو شجرًا أو بهيمةً تَرعى هنا وهناك، بل ارتُقِي به إلى مستوى عالٍ، وحُوبِيَ بأنواعٍ وأنواعٍ من المحاسن فوق سائر الموجودات.

فهـل مـن اللائق الآن، بعدَ كلِّ هذا الكَمِّ من الحَظواتِ أن يذهبَ هذا الإنسـانُ فيشـتغلَ بأمورٍ لا تليقُ بشـخصيَّتِهِ ولا تتناسبُ مـع ما أُسدِيَ إليه من الألطافِ!! فلا يهتمَّ بما يحمِلُه من الميداليَّات، ولا يبالِيَ بكونه تحت أنظـار صاحـب القصـر، بل على العكـس إنه إذا تصـرَّفَ هكذا فـإن أوَّلَ ما يتبادَرُ إلى أذهانِنا: أن هذا الشـخص الذي لا يأبه بهذه النعم الجسـيمة ويشتغلُ بمثل هذه التفاهات لا بدَّ وأن يَلقى عقابَهُ.

ونحن بهذا المثال أردنا أن نبين مدى عدم التناسُبِ بين ما قد حازَهُ الإنسان من الألطافِ في ظلّ رحمانيَّةِ الله ورحيميَّتِهِ وبين ما يقترفُهُ من الأخطاء، وكيف أن اللهَ يتَّخِذُ الإنسانَ مخاطَبًا في حين أنه لا يُقيِّم هذا الالتفاتَ والتوجُّهَ ولا يقدرهما حقَّ قدرِهما.

وفي حديث قدسيّ يرويه أبو هريرة ﷺ تُذْكر المناسبةُ والمقاسمة بين الله وعبده؛ يقول ربُّنا تبارك وتعالى:

"قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ"(٥٧).

فالذي ينبغي لنا نحن باعتبارِنا "عِباد الله" أن نستحضِرَ بين يدي الله هذه المقاسَمَةَ، ونُدْرِكَ تكاليفَنا ومسؤوليَّاتِنا إزاءَ ما حبانا به "الرحمنُ الرحيم" من التزيينات وألبَسَنا من الحِلَع، وما قلَّدَنا من الحِلَى والجواهر، وعلَّقَ علينا من الشارات والأوسمة، وجعلنا مثل الملوك.

د. نعمةُ "الإرادة" التي تُشرِقُ من بُرج الرحمانيّة والرحيميّة

إن الله تعالى أنعم علينا بآلاف من ألطافه وإحساناته، وأكبرُ هذه النعم وأعظمُها وأُولاها هو أنْ خَلَقَنا من العدم وأتى بنا إلى عالم الوجود، ثم حوَّل وجهتَنا من "الفاني" إلى "الباقي"، ومن "الكثرةِ" إلى "الوحدة"،

(٥٧) صحيح مسلم، الصلاة، ٣٨؛ سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٣١.

وأخذَ بأيدينا من عالمٍ نكادُ نغرقُ فيه وجعلَنا في دائرة "الوحدةِ" متوجّهين نحو منازل السعادة، ووَلَّى وجوهَنا شطرَ العالم الذي منه قَدِمْنا، وشَرَحَ صدورنا بسرِّ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البَقَرَة: ١٥٦/٢). نعم، إننا من الله، وسنرجع إلى الله، وهكذا سنحظى بالبقاء، وسنحوز الأبدية ثم نحظى بالسعادة السرمدية، فهو ﷻ هكذا أشعرَنا بلُطْفِهِ وكَرَمِهِ، فجَعل قلوبَنا مطمئنَّة، فنحن مستمتِعون بهذه الألطاف ومتشرِّفون بهذا الشرف في هذه الدنيا التي يختلطُ فيها الخيرُ بالشَّرِّ، والضلالةُ بالهداية، والكفرُ بالإيمان، والشيطانُ بالملك، وأعوانُ الشيطان بأصحاب الأنبياء، وله تعالى نِعَمٌ أخرى؛ إنه يوجّه الأحداث ويُخرجُ مَن يريدُ اللطفَ به إلى ساحل السلامة ويجعلُه مسلِمًا ثم يُدخِلُه دار السلام، وقد مَنَحَنا اللهُ إرادةً مِن إرادته حتى ننجح في هذه الأمور ونستطيع النهوض بها، وبهذه الإرادة جَعَلَنا مرشحين للسعادةِ الأبدية.

وفي هذا المقام قد يسأل سائلٌ: إن الذي خلق كلَّ شيءٍ في الكون هو الله، والذي جعلَنا نُبْصِرُ ونسمع هو، والذي يخلق جميع أعمالنا هو، إذ يقول: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)، فما معنى "إرادة الإنسان" إذًا؟ أفلا يُعتَبر إسنادُ الإرادة إلى الإنسان اتخاذَ شريكٍ لله؟

الجواب: إن الإرادةَ منحَها الله الإنسانَ على أنها سلاحٌ ذو حدَّين، فإذا أُسيءَ استخدامُه قَتل صاحبَه، وهي بالفعل مناسِبةٌ لسوء الاستخدام كما لِحُسْنِهِ، فالله تعالى لَطَفَ بالإنسان فمنحَهُ الإرادة، ولكن الإنسان في كثير من الأحيان أساءَ استعمالها، فتجاوزَ حدودَه، ورأى نفسَه شريكًا لله، ومِن الذين انحرفوا في هذا المجال فرعون؛ حيث إنه مقابل ما قال له موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ١٦/٢٦) نراه يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعلى﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٢٤/٧٩)، فإنه لما رأى في كيانه الإرادة والقدرة على

التدخُّل في الأشياء تَصوَّر في نفسه شراكة لله -تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فناهَض اللهَ كأنه شريك له ﷻ، والحال أنه ليس في الكون موضعٌ للشِّرك ولو مثقال ذرة، والوجودُ بأكملِه إنما هو تجلٍّ لـ"الوحدة"، ولو لم تكن وحدةٌ لَانْعَدَم كلُّ شيءٍ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاء: ٢٢/٢١)، فالأرض والسماء في نظامٍ وانتظامٍ، وهذا يعني أنه ليس هناك شريك للخالق ﷻ بأيِّ حالٍ من الأحوال.

وأما ما أُوتينا من"الإرادة" فالذي يُتوصل إليه باستعمالها هو "الكَسْب" فقط وليس "الخَلْق"، ولكنه تعالى قد وعدَ بأنه سيُثيبُ أو يعاقِب على حسب استعمالنا لها، فقال: "إنني أمنحُك في ظلِّ إرادتي وحاكميّتي ومالكيّتي شيئًا جزئيًّا وبشكلٍ مؤقَّتٍ، إن أسأتَ استخدامَه فإني سآخُذك في الدار الآخرة أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ وسأُعاقبُكَ على ذلك، ولو كنتَ تظنُّ أنك تتصرَّفُ اليوم بإرادتك الحرّة، فإني أنا المالك الحقيقي لذلك اليوم، وسأحاسبُك عليها".

فالله تعالى، ضِمْنَ هذه الموازين وهذه المقاسمةِ لم يعطِ البشرَ حقَّ التدخل في الأمور التي سيخلُقُها إلا بمقدار ما يشبه لمْسَ الزرِّ الكهربائي، وأما أمرُ خلقِ الأحداث فله هو ﷻ، والإرادة التي منحها الإنسانَ ليست إلا تجلّيًا من تجلّياتِ رحمتِهِ ﷻ.

آيةُ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

إنَّ الأسلوبَ القرآنيَّ ليتمتَّعُ بالانسجام والتناسقِ في أبهى صوره، حيث إنه ذَكر في ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مِن مسؤولياتنا نحن بني الإنسان، على طريق الرمز والإشارة، وفي هذه الآية يذكره في غاية الصراحة، فأُعقبت الآيةُ السابقة مباشرةً بما يفسِّر ويجَلِّي ما خفي فيها من الجوانب.

إنه هو "الله"، وهو "رب العالمين"، وهو "الرحمن الرحيم"، وإنه سيجازيكم حسب استخدامكم لما منحكم من "الإرادة"؛ لأنه المالك الوحيد لـ"يوم الدين".

و"يومُ الدين" يعني يوم الجزاء والحساب، إنه اليوم الذي سيلقى فيه الخيرُ والشرُّ جزاءَه، ففي ذلك اليوم سيُنفخ في الصور، وسيكون الحشرُ والنشور، وسيؤتَى الناسُ صحائفَ أعمالهم، ومِن بعد ذلك سيَلقَى الأبرارُ ثواب حسناتهم والأشرارُ عقابَ سيئاتهم.

إن الله ربُّ العالمين، هو المعبود المطلق والمعبود بالاستحقاق، فلا يُعبد سواه، وهو الرحمن الرحيم، أَرسَل الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ، وهَدى إلى سبيله، وكل هذه الأمور تقتضي يومَ الجزاء، ذلك اليوم الذي سيتجلى الله فيه برحمته وقهره، وسيعاقَب فيه الظالمُ ويكافأ فيه المظلوم، سيَحظى المحتاجون إلى الرحمة بالرحمة، في حين أن الذين فَقدوا هذا الحقَّ سيَلقون العذاب، وكل النعم التي تَظهر وتتموَّجُ باعتبارها تجلِّياتٍ للرحمة الإلهية، مع أنها مُعرَّضة للانقطاع "في الدنيا" لكنها ستستمرُّ

في الآخرة بمقتضى عنوان "رب العالمين" و"الرحمن الرحيم"، وإن الفراعنة والشدّادين والظالمين وكلّ من يدَّعون "المالكيّة" في هذه الدنيا سيَمْثُلون أمام الله في ذلك اليوم خاضعين؛ في حين أن الذين أطاعوا أوامرَ ربّهم في دار الدنيا سيدخلون دار السلام بين يدَي "مالك يوم الدين"، إن الله يقول في الحديث القدسي: "**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٥٨).

وإذا نظَرْنا إلى الأسسِ الإيمانيَّةِ ضمن هذه المعادلة والموازنَةِ فسنرى كَم أنها ملائمة للفطرة الإنسانية وسنشاهد كَم أن الأركان الإيمانية متلازمةٌ فيما بينها، وأن بعضَها يقتضي البعض الآخَر.

أ. القيامة: اليوم الذي يقوم فيه كلّ شيءٍ

إن يوم القيامة هو ذلك اليوم الذي سيقوم فيه كلُّ شيء، وسيكون الإنسانُ أيضًا في ذلك اليوم قائمًا -بأعماله ومشاعره- بحمده وثنائه أو بطغيانه وضلاله؛ بشكره وشكرانه أو كفره وكفرانِه، وسيظل ثناؤه لله ﷻ قائمًا، وفي ذلك اليوم الذي سيقوم فيه كلُّ شيء فإن الله -بعظمته وجلاله- سيقوم بحساب الخلق في عظمتِهِ الظاهرة الجليةِ، والقرآنُ العظيم يتحدَّثُ عن هذا بقوله: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ (سورة الفَاتِحَة: ١/٤).

قال هنا: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ مع أن الله ﷻ مالك المُلكِ كلِّهِ وليس يوم الدين فقط، إنه مالك كلِّ شيءٍ وبيده ملكوت كل شيء حقًّا، ولم يكن له شريكٌ في الملك صِدقًا، وفي ذلك اليوم الخاصّ المهيب سيَرى الكلُّ بجلاءٍ ووضوحٍ مَن هو الربُّ ومن هو المالك ومن هو الخالق...

(٥٨) ابن حبان: **الصحيح**، ٢/٤٠٦؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢/٢٢٣.

هنا وردت كلمة "يوم": إنّ عمر الإنسان "يوم"، وأعمار الملل والجماعات "يوم"، وعمر الدنيا "يوم"... وثمَّةَ يوم آخَر يُقابِلُ الدنيا بأكملِها وهو: "اليوم الآخِر"؛ فالدنيا يوم والآخرة يوم، فإن الدنيا والآخرة ليستا في جنب سلطنةِ الله العظيمة إلا عبارة عن يومين اثنين، فكل الأزمنة بالنسبة لهذه السلطنة طرفةُ عينٍ، تمضي سريعًا، إلّا أن الله تعالى منزَّهٌ عن أن يمرَّ عليه زمان.

نعم، إن البشريَّةَ تُحاسَب على "يومها" بعدما تقضيه، وكذلك الدنيا إذا قضَتْ يومَها فإنها ستُحْرِزُ موقِعَهَا اللائقَ بها هناك، وستُستَخدم بكلِّ ذرَّاتها في بناء العالم السرمديّ.

أجل، ذكرنا آنفًا أنَّ لكَ ولعالَمِكَ، وعالَمِ أمَّتِكَ وعالمِ جميع المخلوقات، ولكل العوالم الخصوصِيَّةِ والعموميَّةِ "يومٌ"، وحصيلةُ كلِّ هذه الأيام ستُبسَطُ أمام الأنظارِ على شكلِ لطفِ الله وقهرِهِ في ذلك اليوم الذي عبّرت عنه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (سورة الطَّارِق: ٨٦/٩)، فذلك اليومُ هو ما سماه الله: "يوم الدين".

ب. يومُ الدين: يومُ يَظهر الدينُ

إن مِن معاني "يوم الدين" هو: اليوم الذي تظهرُ فيه حقيقة ما أتى به الدين؛ فنحن في حقيقة الأمر نؤمن بالله وملائكتِهِ وكُتبِهِ ورُسلِهِ واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، ونعتقِدُ بفرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج، إلى غير ذلك بفرائض الدين وشرائعه، فكل هذه الأمور التي نؤمن بها ستظهر في ذلك اليوم على حقيقتِها، وفي ذلك اليوم سنرى ونشاهدُ الله ﷻ، وسنرى النبيَّ ﷺ فنترجَّى منه الشفاعة، وسنرى الملائكة وهم صافّون حافّون من حول العرش، وسنشاهِدُ السماءَ وهي تتشقَّقُ وترتجفُ بنزول الملائكة، سنرى ذلك اليوم الذي سيظهر فيه ما أتى به

الديـن بأكملِـهِ، وما سـطرته أقلام القدَرِ، وسـنرى أقدارَنا نحن، وسـتظهر للعيـان مشـاعرُنا وأحاسـيس قلوبِنا، وسـنرى صلواتِنا، وصيامَنـا؛ جُوعَنا وخَلوفَ أفواهنا؛ بل ما يُعبِّر عنه هذا الخلوفُ، وكيف أن الله تعالى يَرضى به ويحبُّه، وباختصار: سنرى وسنعاين كلَّ ما ذُكر لنا في الدنيا عن الآخرة.

نعـم، إن كل الحقائـق التي ورد ذكرُها فـي الآيات والأحاديث النبويَّةِ من أمورِ الدين، ستظهر في ذلك اليوم بكلِّ جلاءٍ ووضوحٍ، بدءًا من أصغر الأمور وانتهاءًا بحقيقة "الألوهيّة" التي هي أكبر الحقائق.

ج. الدينُ والتديُّنُ

إن الدينَ وضـعٌ إلهيٌّ، ونظامٌ وضعه الله تعالى، وأصلُه ومعناهُ وماهيَّتُه عنـده تعالـى، وكما أنه يظهرُ هنا في الدينا سـيظهر هناك في الآخرة أيضًا، والدِّيـنُ -كمـا عرَّفه بعـضُ العلماء-: "وَضْـعٌ إلهيٌّ سـائقٌ لـذوي العقول باختيارهـم المحمود إلى الخير بالذات"، فالديـن قانونُ الله، ويُطلَقُ عليه: "الشـريعة"، فـ(الدين - الشـريعة - الإسلام) مجموعةٌ من القوانين الإلهية، والديـن يسـوق النـاس إلى الخيـر "بإرادتهم واختيارهم"، ولا يسـلُب من الناس إرادتهم، فالإنسان لم يُحبَسْ في حدود الفطرةِ مثل الجمادات التي قُيِّـدت في إطار نمطِ حياةٍ خاصٍّ بها، إنه مُنح "الإرادة والاختيار"، فأُطلق عنانه وأُعطِيَ "الحريةَ" في الاختيار بين الخير والشر.

ومَـن أمعـنَ النظرَ فسـيلاحِظُ فـي هذا التعريـفِ أن الدينَ سـائقٌ إلى الخير، فلا بد لتسمية أمرٍ مَا "دينًا" أن يكون بِيَدِ من يستطيـع أن يَسُوق إلى الخيـر، ويجعلَنـا نحصلُ على النتائج التي يَعِدُنـا بها، وأن يعطيَنا ما ينبغي إعطاؤُه بحيث يُشبِـعُ كلَّ مشاعِرِنا وأحاسيسنا بالإضافة إلى تلبيةِ متطلَّباتِنا العقليّة والقلبيّة.

ولذلك نقول: إن الذين أرادوا وحاولوا أن يَسُوسُوا البشريَّةَ بمجرَّدِ "الضمير"؛ قد انحرفوا بها إلى سبلٍ ضالَّةٍ بدلًا من هدايتِها وسَوقِها إلى الصراط المستقيم؛ لأنهم وضعوا أمامها عديدًا من السبل بعددِ الضمائر.

والعقلانيُّون الذين يقولون: "إن العقلَ يَحُلُّ كلَّ القضايا"، قد انطلقوا بالعقل فقط من دون أن يُدرِكوا حقيقة القلب والروح ويَنفُذوا إلى أعماق الإنسان، فتعثَّروا وانقطعت بهم السبل، ولم يَحُلُّوا أية قضية، والحقيقة أن العقل ليس إلا آلة لفهمِ الدين الذي هو "وضعٌ إلهيٌّ"؛ فالعقلُ مهمَّتُه أن يَفهم الدينَ والقوانين الإلهيَّة حتى يصلَ إلى التديُّن المكنونِ في روح الدين، ولقد كُلِّف البشر بأن يحصلوا على التديُّنِ بعقولهم وتصرُّفاتهم الإراديَّة أي بِكَسبِهم، والواقعُ أنه ليس لِدين أن يعيشَ من دون تديُّنٍ، كما أنه ما كان لتديُّن أن يقوم ويستمرَّ من دون دِين، فالدين والتديُّنُ وجهان لحقيقةٍ عظمى، فالدين قانونُ الله وشريعتُه، أما التديُّن فهو كسبٌ بشريٌّ يتمثَّل في جعل الدين روحًا للحياة.

الإنسانُ لا يكون متديِّنًا إلا بمقدار ما يجعل الدين روحًا لحياته، وبمقدار ما يجعل مبادئَ الدين ودساتيرَه غايةَ حياته وهدفَها، وإذا كان يؤمِنُ ويعتقدُ بأن ما يعمله حقٌّ وصدقٌ ولا يلتمسُ مِن وراء ذلك إلا رضا الله تعالى؛ فلن يذهبَ أيُّ شيءٍ مما يعمله باسم الدين سدى؛ ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَة: ٩٩/٧-٨)، ولكن الإنسانَ إذا توخَّى مِن وراءِ عملِهِ منفعةً عاجلةً، فذلك يدلُّ على عدمِ إخلاصِهِ، ولِعدمِ إخلاصه لا يحظى بالقَبول الحَسن عند الله ﷻ، فتُضرَب عبادتُه وعملُه في وجهه، إن الغايةَ والهدفَ الوحيد من العبودية لله والتديُّنِ له ﷻ إنما هو تلبية "أمر الله"، بمعنى أن الإنسانَ عليه أن يتديَّنَ لمجرَّدِ أن الله أمره بذلك، ويبتغي -في نهاية المطاف- رضا الله تعالى ولا يرجو

منفعـةً أخرى، وفي هـذه الطريق التي يبتغي العبدُ فيها رِضَا الله تعالى فقط يأمـلُ العبدُ ويتطلَّـعُ إلـى أن يُحصِّلَ في الآخرةِ ثمراتِ الأعمالِ التي وفَّقَهُ الله إلى القيام بها في الدنيا، ومِن هذا المنطلق يمكن القول: إن التديُّنَ هو: تنفيذ ما أمر الله به، لتحصيلِ مرضاته هو، وابتغاء الثمرةِ والنتيجةِ منه ﷻ.

د. كلمة: ﴿مَالِكِ﴾

كلمة "مَالِك" قرأها هكذا من القُرّاء السبعة عاصمٌ والكسائيُّ، والباقون قرؤوهـا: "مَلِـك"، المالكُ هو مَن يملك شـيئًا مطلقًا، أمـا المَلِكُ فهو مَن يملـك الحُكمَ، وهو رئيس الدولة وحاكمُهـا ومدبرها ومن يُعِدُّ لها العُدَّةَ، ويُسيِّر أمورَها ويديرها.

والله ﷻ يَذكـر -حسـب اختـلاف القـراءات- في آيةٍ واحـدة المَلِكَ والمالـك معًـا؛ فإنـه لولا المَلِك لما كان هنـاك لا مالكٌ ولا مِلك، فلا بد أوّلًا من مَلِكٍ ينظِّمُ أمورَ دولَتِهِ وشعبِهِ، ويقسِّم الحقوق المعينة بين الأفراد ويعيّنها ليمتلك كلُّ ذي حقٍّ حقَّه ويصبح مالكًا لذلك الحقِّ الذي تَمَلَّكَه، ورئيـسُ الدولـة هذا، فـي حين أنه مَلِكٌ هـو في الوقت ذاتـه مالكٌ لذلك الملْـك، وكلُّ فـردٍ من الأفراد الآخرين مالكٌ باعتبـار أنه صاحبٌ لحصَّتِهِ وممتلكٌ لعينِها.

ولا بـدَّ هنـا مـن التنبُّه إلى أمرٍ في غاية الدِّقَّـة، وهو أن الله ﷻ في هذه الآية يعيّن نظام الدولة التي سيؤسِّسُها الإنسانُ باعتبارِهِ خليفةً لله على وجه الأرض، ويضـعُ أُسُسَ هذا النظام.

والحقيقـة هي أن تأسـيسَ الدولـة عبارةٌ عن تَظاهُرِ عنـوانِ "المالكية" (بالمعنَيَين السابقين) التي أعطاها الله الإنسانَ وديعةً.

فـإذا أُسـنِدت الدولـةُ إلى أسـاس "المالكية" فقـط، فَسَـيَنْتُج من هذا "الليبراليّةُ"، والأساسُ في هذا النظام هو الفردُ والحقوقُ الفردية، في حين أنـه فـي نظام الدولـة التي يريدها الله تعالى والذي أشـار إليه في هذه الآية تُوجَّـه الأنظارُ إلـى "المالكية" من جانبٍ، وإلى "المَلِكية" من جانب آخر؛ فيوصَى بأنْ تؤسَّس قواعدُ الدولة وتُرسَى على هذين الأساسين.

ففـي البـلاد التي تؤخَذُ فيها مصالـحُ الدولةِ فقط بعين الاعتبار تُغصَب حقـوق الفـرد، فلا يَسـعد برغد العيش إلا ثلّة قليلـة ممن هم في الطبقات العليـا مـن الدولـة، ويصبح مـن سـواهم مفلوجين مغلوبيـن على أمرهم تعسـاء، أما في الأنظمة التي يؤخذ فيها الأفرادُ فقط بعين الاعتبار فالدولة تصبحُ مشـلولةً؛ لأن في مجتمـعٍ كهذا من حيث إنه يتوخَّى "اللامركزية"، فـإن الدولة لا تصبح إلا بمثابة جسـمٍ قُطِّعت أعضـاؤه، إن النظام المثالي يجمـع بين هذين الأمرين ليحصل الرؤسـاء والمرؤوسـون على حقوقهم بأكملِ وجهٍ.

فإن الله ﷻ بقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يتحدث لنا عن مشـاعر "التملك" التـي أودعهـا فينـا وأعطانا إياها مِـن مالكيَّته هو، وعما مَنَح الإنسـانَ من صلاحيتـه لإقامـة الدولة، وعن أسُـس الدولة ومبادئهـا... ويَلفت أنظارَنا إلى أمرٍ آخر، وكأنه يقول لنا: تُمنح لكم في الدنيا مالكيَّة "نسـبيّة"، ولكن الملـك فـي الآخرة سـيكون بتمامه لله تعالـى، ولذلك فعليكـم أن تبحثوا عن وسائل لتحويل ما تملكون إلى ملك خالد.

إن الملـك لله، والذيـن يرثونـه هم عبـاده الصالحون، فكمـا أن الأمر هكـذا فـي الحقوق الفردية فكذلك فـي قوانين الـدول والقوانين الدولية، ولذلـك فرض الإسـلامُ "إعـلاء كلمة الله" في الأرض حتـى يبلُـغ دينُ الله إلى كلِّ الناس.

والإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، يتصرَّفُ على وجهِ الأرض نيابةً عن الله تعالى، وبهذا التصرف التي يُجرى باسمه ﷻ تتحقَّقُ العدالة والنظام.

هـ. إن الله هو المالكُ الوحيدُ ليوم الدين

وهناك أمر آخر يمكن أن نفهمَهُ من هذه الآية وهو: أن مالكَ يوم الدين هو الله ﷻ، فمالكيَّةُ سائر المالِكين أمرٌ نسبيٌّ مؤقَّتٌ، وهي وديعةٌ أودَعَها الله لهم، وكأن الله تعالى، بإشارة من هذه الآية يقول: "أيها الفراعنة والنماردة والذين يعيشون مختالين فخورين قائلين: أنا المالك أو أنا المَلِك، أيها السلاطين والأمراء والرؤساء والملوك! سيأتي عليكم يومٌ يزولُ فيه هذا المُلكُ من أيديكم، فأنا المالك الوحيد لذلك اليوم الذي ستنجلي فيه الحقيقة العظمى التي تتحدَّثُ عنها آيةُ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة غَافِر: ١٦/٤٠)، فانظروا -وأنتم تمارسون الحُكمَ- من جانبٍ إلى مُلكِكُمْ أنتم، ومن جانبٍ آخرَ إلى مُلك ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فإذا قلَّبتم أنظاركم وتوجَّهتم بها -بين الحين والآخر- أثناء تصرُّفِكم في دائرةِ ملكِكُم الصغيرة، إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فستكسبون حقَّ الإدارة في صلاح واستقامة، وإلا فإذا اعتمدْتم على مالكيَّتِكم فستذهبُ حياتُكم هباءً منثورًا، ويذهب ملكُكم أدراج الرياح، ويسوء مصيركم، ويؤول إلى تعاسةٍ وشقاء.

وأما إذا لم تعتمدوا على مالكيَّتِكم واتَّكلتُم على مُلكِ الله؛ ففي ذلك اليوم الذي سيُنزَع مُلكُكُم ومالكيَّتُكُم ومَلِكيَّتُكُم من أيديكم سيتجلى الله باسمَيهِ: الرحمن والرحيم، ويضعُ ذلك الملك في ضمن الرحمانيّة والرحيميّة، ويمنحكم سلطنةً ومُلكًا لا ينتهيان ولا يتزعزعان.

والله ﷻ بهذه الآيات الكريمة يريد منا التوجُّهَ إليه ﷻ، ويقول لنا: إن كنتم تريدون أن تَحمَدوا أحدًا فعليكم أن تَحمَدوني أنا؛ لأنني أنا الله رب

العالمين، وأنا -فقط- صاحب الجمال والكمال في ذاته، وإذا كان لديكم في مستقبل أمركم أيُّ مطلبٍ وحاجةٍ وَوَطَرٍ لدى أحدٍ فاطلبوه مني أنا؛ لأنني أنا الذي أتجلّى باسم: "الرحمن الرحيم"، وكذا إن كان لديكم أيُّ تخوُّفٍ أو توجُّسٍ، أو تَحمِلون بين جوانحكم خوفًا من أن تُحاسَبوا حسابًا عسيرًا؛ فراجعوني أنا؛ لأنني "مالك يوم الدين"، وأنا الذي سأحاسبكم هناك.

وفي بداية سورة الفاتحة الشريفة بدأنا بالحمد والثناء لله؛ الذي جَعَلَنا مسلمِين، وجعلَنا من أمة محمد ﷺ، وربَطَنا بنبيّه ﷺ رَبْطًا وثيقًا وجعلَنا خيرَ أمَّةٍ، ووَجَّه قلوبَنا نحوه ﷻ، وبذلك حبانا بنعم كثيرة، ومِن بعد ذلك قلنا: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وأَجَلْنا أنظارَنا -باعتبارِ أنَّنا عرفناه تعالى- في أنفُسِنا، وشاهَدنا ربوبيَّتَه في كلِّ شيءٍ، بدءًا من دورانِ وجولان الذرَّات التي تتشكَّلُ منها أجسامُنا وانتهاءً بحركات الأنظمة والمجرّات وسيرِها، وشاهَدْنا أنه يَسوق كلَّ شيءٍ سوقًا حثيثًا ويُلجئُها نحو الكمال، ورأينا أنه يحوِّل كلَّ شيءٍ إلى عناصر سيستعملها في بناء الجنة والنار، ولاحَظْنا أن كلَّ شيءٍ يتلقى تربيته.

نعم، إننا شاهدنا تصرُّفاته العظيمة هذه، ومِن بعد ذلك أدرَكنا أن الله الذي يدبّرُ كلَّ هذه الأحداث المطَّردة المتعاقبة في ديمومة وانتظامٍ؛ خلطَ هنا الخيرَ بالشرِّ، وفسح المجالَ للجميل بجانب القبيح، وللإيمان بجانب الكفر، ولا بدَّ أنه سيخلق يومًا دارًا أخرى يميز فيها بين ذلك كلِّه، فذلك اليوم هو "يوم الدين"، وتلك الدار هي "الدار الآخرة" التي فيها "المحكمة الكبرى"، يومئذ تظهر الأعمال بخيرها وشرها، ويُكافأ المحسنون بباقات من الثواب، بينما يبحث المسيؤون عن مهربٍ من عاقبةِ إساءتِهم، فالله هو المالك الوحيد لـ"يوم الدين" هذا، ويَبرُز في ذلك اليوم الدينُ وحاكميةُ

الله ناصعًا جليًّا؛ فإنه لن يحكم فيه إلا هو، ولن يجازِي إلا هو، فينبغي لنا -ما دمنا على قيد الحياة- أن لا ندعو إلا إيّاه، وألا ننطق إلا باسْـمِهِ، ولا نتوجَّهَ إلى أحدٍ سواه.

آيةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

وبعد كلِّ هذا البحثِ الذي يدلُّنا على الحقِّ تعالى، نَمْثُلُ بين يديه؛ فكأن السورةَ من بدايَتِها إلى الآن هيَّأَتْنا للمُثول بين يديه، نَمْثُل بين يديه ونقدِّم عبوديَّتَنا له ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهذه هي النقطةُ التي تَلفِتُ إليها مقولةُ: "الصلاةُ معراجُ المؤمن؛ فإنك تحلِّق وتصعدُ في الأعالي، وتتخطّى المكان، وتسمو إلى مقامٍ تقول فيه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث تجمعُ بين "الجَمْع" و"الفَرْق"، ويا لها من سعادة أن توفَّقَ للعروج باعتقادِك ويقينك كلّ يومٍ خمس مرّات إلى مقامٍ عَرج إليه سلطان الأنبياء بِجِسْمِهِ وروحِهِ ليلةَ المعراج.

أ. العِبادة - العُبوديّة - العُبُودة

﴿نَعْبُدُ﴾ فعلٌ مضارع للمتكلِّمِ مع الغير، يفيد حصولَ الفعل على سبيل التجدُّدِ، وهي مِن "عَبَدَ - يَعْبُدُ - عِبَادَةً وعُبُودِيَّةً وعُبُودَةً".

ومعنى "عَبَدَ": قام بالفعل بعزمٍ وتصميم، والعبودة: التواضعُ والخضوعُ، والعبودية: قيامُ العبد بالتعظيم والتبجيلِ لمولاه في نظامٍ معيَّن، والعبادة: أن تعبد الله ﷻ طبقًا لما أَمَر به، في خضوع وخشوعٍ؛ بمعنى أنك -أيها العابِدُ- تُمَرِّغُ وجهكَ بالأرض وتتذلَّلُ أمام الله في عزمٍ وتصميمٍ، وحرصٍ على عدم توليتِكَ وجهَكَ شطرَ أيّ شيءٍ سواه، وتقدِّم له التعظيم والتبجيل في خشوع وخضوع بَالِغَيْن، ولكن ليس بطريقة عشوائية، بل في نظام وميزان تلقيتَه منه تعالى، تَفعلُ ذلك وأنت تستشعر كبرياءَه وعظمته،

وتُـدرِكُ مدى ضآلة حجمك وقـدرِك، فكأنك حينما تقـول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تعني: "يا ربَّنا! أنا العبد وأنت المولى، وأنا الرقيق وأنت السـيد، أنا الهائم المشرَّد في المتاهات، وأنت المولى المتعالي الذي يقول لي: "أما آن لك أن تأتيني؟"، فتستحضرُ هذه المعاني وأنت تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

ب. العِبادة - الطاعة - القُربة

والعبـادة في المصطلح الإسـلامي هـي: الطاعة التي تُقَـدَّم لله بقصدِ التقرُّب إليه تعالى، وبخالصِ النيّة، وعلى أمل الثواب منه تعالى.

وحينما تُطلَق العبادةُ فإن معنى الطاعة والقربةِ مندرجٌ فيها، ولكن في الوقـت ذاتِهِ لـكلٍّ من كلمات "العبادة" و"الطاعـة" و"القربة" معنى يختصّ بها:

فالطاعـةُ: فِعْـلُ ما يُثاب عليه، أي امتثالُ الأمـر، ولا يتَوقَّف على النيَّةِ ولا على معرفةِ مَن يُطاع.

والقربـة: فعـلُ ما يُثاب عليه، ولا يتوقَّف على النية ولكن يتوقَّف على معرفةِ مَن يُتقرَّب إليه.

وبهـذا الاعتبـار فالطاعة أعمُّ، والقربةُ أخـصُّ منها والعبادةُ أخصُّ من القربة، أي كلُّ عبادة قربةٌ وطاعةٌ في الوقت نفسـه، وليس كلُّ قربةٍ وطاعةٍ عبادةً.

ولنوضح هذا بمثال:

إنَّ تَفكُّر الإنسان في نفسه وفي الكون، أي إنّ تَفكُّره الآفاقيَّ والأنفسيَّ إذا تحقَّق منه من دون أن يَعرف مَن يجب عليه أن يَعرِفَهُ، فإن ذلك لا يُعد قربة ولا عبادة، لكنه طاعةٌ، فمثلًا: إننا نقوم بالبحث في الآفاق والأنفس، ونشـتغل بعلومٍ مثل الفيزيـاء والكيمياء والفلك وعلـم الأحياء، وفي أثناء

ذلك نرجع إلى أنفسنا ونخوض في التدقيقات الأنفسية، وبمثل هذه التدقيقات نكون قد خُضنا في تفكُّرٍ وتذكُّرٍ عميقَيْن، وذكرٍ وفكرٍ دقيقَيْن، ولكن مثل هذه النشاطات مع أنها نوعٌ من الطاعة لأمر الله تعالى، لكنَّها لا تُعَدُّ قربةً ولا عبادة، وإنما هي ليست عبادة؛ لأن القيام بمثل هذه الأعمال لا يحتاج إلى نية العبادة، وليست قربة؛ لأن المتفكِّرَ لا يَعرف بَعْدُ ذلكَ الكبيرَ المتعاليَ ﷻ، ففي مثل هذه الجادة النورانية إذا قلنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مستشعرين معانيها بكلِّ كيانِنا فإننا سنصل إلى الهدف، وأما قراءة القرآن، وإيتاءُ الصدقاتِ ونحوُها فإنها تُعَدُّ طاعةً وقربةً لأنها لا تحتاج إلى نيّةٍ، ولكنها لا تُعَدُّ عبادةً حسب المواصفات التي ذكرناها آنفًا.

فـ"العبادة" هي نوعٌ من الحركات المنتظِمة التي تتجلَّى في توجُّه الإنسان إلى الله بكلِّ كيانِهِ، وبجميع مشاعِرِهِ، وبكافَّةِ حواسِّه الظاهرةِ والباطنة، وبِمَلَكَاتِهِ الفكريّة، وعالمِهِ الحسّيّ، وبعقلِه ولسانِهِ.

فهذه النقاط التي ذكرناها هي من التفسيرات الواردة للعبادة في الإسلام، ونحن بدورنا حينما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنما نقصد بها هذه المعاني، إن العبادة اسمٌ لتوجُّه العبد إلى ربِّهِ بكلِّ تعظيم وتكريم، مع استحضاره لعجزِهِ وافتقارِهِ وضعفِه وحاجاتِهِ ولا شَيْئِيَّتِهِ، ومع العلم بأن كلَّ السعادة والحبورِ والرَّغَدِ والفرحِ هي في القرب منه ﷻ، ومن حيث إنه لا يمكن ولا يجوز تكريمُ غير الله بهذا النوع من التعظيم والتبجيل، فما يفعله الإنسانُ أمام غيره من الاحترام بالقول أو الفعل وسائر أنواع التبجيل لا يُسمَّى "عبادة"، فالعبادةُ حقٌّ خالصٌ له وخاصٌّ به ﷻ.

ج. العبادة وروحُ الإنسان

وأما تحليلُ هذا الأمر من زاويةِ علمِ النفس فهو: أن نفسَ الإنسانِ تنزلُ بها الآلام والأكدارُ، كما تمرُّ بها الآمالُ والمسرَّات، والإنسان بطبيعتِهِ

يكـون -دائمًـا- مرتابًا تجاه الأمور التي تُخلِّف في نفسـه الأذى، فيحاول الابتعـادَ عنها؛ وهـو -بالمقابل- مولَـعٌ بالأمورِ التي تـؤدِّي إلى الملذَّات، فيظـلُّ متعلّقًـا بهـذه الأمور بأملٍ، ويتشـبَّثُ بهـا بحـرصٍ، وبطبيعة الحال يستقبلُ الأسبابَ المؤدِّيةَ إلى الأذى بكراهيةٍ ويكون متيقِّظًا تجاهها.

وهـذا يعني أن الإنسـان أمام نوعين من الأحداث؛ إنـه يَلقى أمورًا لا يفتأُ يطلبُها ويشتهيها ويلهثُ وراءَها ويَمُدُّ يديه نحوَها وينشرِحُ لها، وهناك أمـور أخرى يُعاني وينزعـجُ منها ويخافُها ويحاولُ الهروبَ منها، إنه بمثلِ هذا الخوفِ وما ينتجُ عنه من تهرُّبٍ، وبمثلِ تلك المحبَّة وما يسـتند إليها من أملٍ يحافِظُ على التوازنِ الذي هو مقتضى إنسـانيّته، وهذا التوازنُ من الأهمِّيَّـةِ بمكان، بحيث إنه إذا انقطـع الرجاءُ والأملُ من الفردِ والمجتمـعِ فإن اليأسَ سـيُطِلُّ برأسِـهِ، وسـيَخمدُ العزمُ على العملِ بالكلّيّة، وستنطفئُ جذوةُ النشـاطِ والحركيّة، فإذا فَقد الإنسانُ الأملَ قبـعَ الكسلُ واستفحلَت العطالـةُ في داخله، فحتى لا ينمحي الشـعور بالأمـل لا بدّ من عدمِ ذبولِ وردةِ المحبـة التي هي منبـع الأمل، بـل تظلَّ حيَّةً نابضة، وكذلك الخوف إذا انمحى من الفرد والمجتمـع فإن الفرد والأسرة والمجتمـع وكلَّ الأمة قاطبةً سـيبدؤون بمباشرةِ أعمالٍ غير محسوبة النتائج، وهذا الأمر سيؤدي إلى طغيان البشرية جمعاء.

ولذلـك فقـد تَزامَـنَ خَلـقُ الإحسـاسِ بالخـوفِ والمحبَّةِ مـع خلقِ الإنسان؛ حيث اندَرَجَ في ماهيَّةِ الإنسانِ شعورٌ بالمحبَّةِ، وهذا الشعورُ من السَّعَةِ بحيث يستوعبُ جميـعَ الكون، كما أنه وضـعَ في ماهيَّتِهِ الإحساسَ بالخوفِ بحيث إنه يَشـعُرُ بالرهبَةِ الشـديدة تجاه الأحداث التي تنتظِرُهُ أو التـي يتوهّـم أنها له بالمرصاد؛ فأحيانًا تتزعـزعُ أركانُ آمالِهِ كلِّيًّا جرَّاء هذا

الخـوف، بل إنه لَيَخَافُ من الانهـدامِ والاندحارِ كلِّيًّا، فتراه يَرهب وترتعد فرائصُهُ من المثولِ أمام الله تعالى هكذا مسودَّ الوجه صِفرَ اليدين.

هـذا الأمـر في حـدِّ ذاتِهِ لا بـدَّ منه لـدوام العدل والاسـتقامة، ولكن إذا أسـيءَ اسـتخدامُهُ فإنه يجعل الإنسـان يخافُ كلَّ شـيءٍ؛ من الزلازل والمذَنَّبـات ولَـدْغِ الحيات ولسـع العقارب، حتى مـن الميكروبات التي لا تُرى، وهذا الخوف من شـأنه أن يعكِّرَ صفوَ الإنسـانِ ويكدِّرَه في قابلِ حياته، لأنه يخاف أشياء لا تَعرِف الرأفةَ والرحمة؛ فمَن تعرض لهذا البلاء فلن يحظى بالسكينة والطمأنينة إلى أن يمحوَهُ من ذهنِهِ.

وأما فرطُ المحبَّةِ فهي أيضًا مصيبةٌ محفوفةٌ بالبلايا؛ فقد يميلُ الإنسان إلـى أمـورٍ ويتعلَّقُ قلبُهُ بأشـياء، ويلهـث -بكلِّ أملٍ- وراءَ أشـخاص، إلا أنهم لا يلتفتون إليه ويفارقونه من دون كلمةِ وداعٍ حتى. أجل، إن شبابَك وطاقتَـك وحيويَّتَـكَ سـتذهبُ عنك مـن دون أن توَدِّعَكَ، بل إن شـريكةَ حياتِكَ وأمَّكَ وأباكَ وأولادَكَ لا يودِّعونك حينما يذهبون إلى الآخرة.

أجـل، المحبَّـةُ أيضًـا قد تتحـوَّلُ إلى مصيبةٍ، فإذا أسـيءَ اسـتخدامُها عادت على الإنسـان بالويلات، قد يشـتدُّ ارتباطُ الإنسـانِ بما أحبَّهُ وعلَّقَ عليه آمالَه بحيث يكون عبدًا رقيقًا له، فيجعله هذا التعلُّقُ الشديدُ والمحبَّةُ البالغةُ أعمى وأصمّ، فلا يعير سمعًا لأيِّ شيءٍ يُقالُ ضدَّ محبوبِهِ، ولا يَرى ما سيتعرَّضُ له محبوبُهُ من الفناءِ والزوال.

فكلُّ أنواعِ الشـركِ وعبادةِ الأوثان واتّخاذ الشـركاء والأنداد لله تعالى قد نشأت من هذه المشاعر، فتحوَّلت الأشياءُ المحبوبةُ أو المرهوب منها إلى آلهةٍ تُعبَدُ.

نعم، إن الحاجةَ إلى الأمنِ تجاهَ الأمور المخيفةِ، ورجاءَ الحصول على إحرازِ الأمور المحبوبة؛ قد أَنتجت ركامًا من المعبودات، فما إن يتعلّق القلبُ بالفانيات الزائلات حتى يكون الإنسان في الخسران؛ فإنه قد يتعلَّقُ بما لا يَضمن له عدم الرحيل إلى العالم الآخر قبله، ولا يستطيع تحقيقَ ما عُقِدَ عليه مِن آمال.

كان رسول الله ﷺ سلطانًا للقلوب ينبغي لكل أحدٍ أن يرتبطَ به من أعماق قلبِهِ؛ فقد كان كلُّ قلبٍ طاهرٍ برَّاقٍ يحبُّهُ حبًّا جَمًّا، مع ذلك فإن الذين فهموا جيّدًا ووعَوا أهمِّيَّةَ الحفاظ على التوازن في موضوعِ تعليق القلبِ بالباقي ﷻ دون الفاني لم يتزعزعوا بوفاتِهِ؛ وأما الذين تعلَّقوا بالفاني، فإنهم لم يصمدوا، وبعضُهم تركوا دينَه وارتدُّوا عنه.

إن كلَّ شيءٍ قابلٍ للتطور والتغير فإنه في نهاية أمره سيؤول إلى الزوال، والرسولُ الأكرم ﷺ كان قد أدَّى ما عليه من التكاليف بأخلص المشاعر وأنهى مهمَّتَه، ومِن بعد ذلك استجابَ لدعوة ربه، وقد يكون من المفيد الحديثُ عن حدثٍ لافتٍ للأنظار ذي علاقة بهذا الموضوع:

في هذه الفترة الحرجة التي التحق فيها الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى تعرَّضَ الناسُ لزعزعةٍ، حتى سيدُنا عمرُ بن الخطاب ذو العقل الراقي الذي كان يَعرف جيّدًا الحفاظَ على التوازن بين الباقي والفاني عاتبَ وكذَّب يؤمئذٍ مَن قال إن رسول الله ﷺ قد مات، وكان ثمَّةَ رجل يتعلق قلبُهُ بالباقي على قدر بقائِهِ وبالفاني على درجةِ فنائِهِ، هو الصِّدّيق الأعظم ﷺ، فكان يسكن في حيٍّ قريب من أحياء المدينة يُدْعى "السُّنْحَ"، فلما نزلَ المدينةَ لاحظَ السُحُبَ السوداء التي خيَّمت على آفاقِها؛ وكان الناس يبكونَ ولا ينبسون ولو ببنتِ شفة، حتى إن شخصًا مثل سيدنا علي الحيدر الكرار الذي كان حينما يزأرُ ترتعدُ منه فرائصُ الأُسُود، لم يعد قادرًا على

الوقوف على قدميه، ولكن الصادق إذا طُلِبَ منه الصدق والإخلاص فإن إظهارَهُ لصدقِهِ يكون من باب الأداءِ بالواجب.

نعم، إن الصِّديق الأكبر كان يحملُ على عاتقه مسؤوليَّةً كبرى؛ كان عليه أن يغيّر الجوَّ السائدَ هناك، ويُحْدِثَ تيَّارًا جديدًا كلَّ الجدَّة، ويبيّنَ لمن كان هناك: مَن هو الباقي ومَن الفاني؟ ولكنه قبل ذلك مرَّ على الحُجرة الشريفة، واقتربَ من الرسول ﷺ وقبّل وجهه الأزهرَ الأنورَ، ويا لهما من شفتين نظيفتين تمسَّان تلك الجبهة الطاهرة؛ ففي أثناء ذلك يقول: "بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا"، وبعد ذلك دخل المسجد، فشقَّ صفوف الصحابة المهزوزين المرزوئين المدهوشين، فحمد اللهَ وَأَثْنَى عليه وقال: "أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ"، ثم قرأ: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾ (الزمر: ٣٠)، وقرأ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٤٤)[٥٩].

فالصحابة ﷺ أفاقوا جميعًا عن غفوتِهم فجأةً، حيث تأكَّدوا من أن الرسولَ ﷺ قد ارتحل، والوحيَ قد انقطع، ولكن كأنهم كانوا يتساءلون فيما بينهم وبين أنفسهم: هل نزلت هذه الآية للتوّ!؟ فكأن عِظمَ المصيبةِ أذهلهم عن وجود مثل هذه الآية في القرآن الكريم، ولم يكن يخطر ببالهم ويدُور بخَلَدهم إلى ذلك الحين أن شمسَ الشموسِ من الممكنِ أن تأفلَ أو تغيبَ عن ناظِرهم.

فالآية الكريمة كانت تقول لهم: ما محمد ﷺ إلا رسولٌ للهِ شَرِيفٌ ليس غير ذلك، ومِن قَبْلِه قد أتتْ رُسلٌ مثله وراحوا، فإن توفاه الله أو قُتِل فهل ستنقلِبُون على أعقابكم وتَترُكون دينَه؟

(٥٩) صحيح البخاري، المناقب، ٣٣.

لقد نزلَتْ هذه الآية يوم موقعة أُحد، ولم يزل الصحابةُ الكرام يُرَتِّلونها إلى أن جاءَ يوم رحيلِ رسول الله ﷺ، ولكنهم ما كانوا قد فهِمُوا ما تنطوي عليه من المعنى على الوجه الذي فَهِمَهُ أبو بكر ﷺ، والرسولُ ﷺ قد أدَّى مهمَّتَهُ ورحلَ، ولكن الله باقٍ لا يموت.

فكأنما أحدث صوت سيدنا أبي بكر ﷺ موجةً في المسجِدِ هزَّتْ كيان المجتمعين، وأخذ الصحابة يؤوبون إلى الله من جديد، فصار هذا الجَيَشانُ والتموُّجُ بمنزلةِ سدٍّ أمام الفِتَنِ التي تُراد إثارتُها إثرَ وفاةِ رسول الله ﷺ، وصار بمثابة إنذارٍ مبكِّرٍ لهم تجاه ما سيظهر في الأوقات اللاحقة من الأحداث والفِتَنِ المتعاقِبَةِ، ودفَعَهم إلى التنبُّهِ والحَذَرِ.

وإذ وصل بنا الحديث إلى هذه النقطة نريد أن نُذكِّرَ بما قلناه سابقًا فنقولُ: هل مِن الفانين الذين ارتبطت بهم قلوبكم وعُلِّقَتْ عليهم آمالكم مِن أحدٍ يضمنُ لكم أن لا يرحل من هذه الدنيا قبلكم، وأنْ يلبي كل أمانيكم ورغباتكم؟!

فإذا كانت المحبة التي لا بد من توجيهها إلى الله لا يجوز توجيهها حتى إلى رسول الله ﷺ، فلا بدَّ لكم من أن تُعيدوا النظرَ مجدَّدًا -من منظورِ عقيدةِ التوحيد- في المحبَّة والتعلق اللذَين تُبدونهما نحوَ كثير من معبوداتكم وأصنامكم الفانيات.

فالقلبُ إذا توجَّهَ نحو الفانيات؛ أوقعَ صاحبَه في ازدواجيّةٍ مخيفةٍ، ويصبح وكأنه ذو شخصيَّتين، لأن الإنسان يحملُ بين جوانحِهِ الخوفَ والمحبَّة، ولكن هذه المحبَّة والخوف إذا لم يجدا صاحبَهما الحقيقيّ فإن الإنسان قد يُصبح قلبُهُ متعلِّقًا بما يخافُه ويحبُّه، بل أحيانًا ما يعبدُه، وهكذا يكون قد اختلقَ آلهةً عدّة وسَلَّطها على نفسه؛ ولكنه إذا عَرَف المرجعَ الأوَّلَ والأخير لذلك الخوف وتلك المحبةِ، وتَقبَّلَه بكلِّ روحِهِ وكيانِهِ؛

فإن ذلك الإنسان يكون مترقّيًا إلى التوحيد، وبفضل هذا الخوف وهذه المحبة يُحرزُ السكينةَ والطمأنينةَ الحقيقيَّتين.

وهذا يعني أن الخالق الأعظمَ والصانعَ الأجلَّ الذي خلقَنَا قد أودَعَ فينا الآليَّات والقدراتِ التي من شأنها أن توجِّهَنا إليه تعالى، وهي تقوم بهذا العمل فعلًا، وفي الوقت نفسِهِ أودع فينا محبَّةً تَسَعُ الكون، ومهابةً عظيمةً تَسَعُ العوالم، ومِن أحسنِ الأمثلة على هذا محبّةُ الطفل لأمِّهِ والأمِّ لطفلها.

والإنسانُ إذا ضاقت به الدنيا وصارَ يرتجفُ فؤادُهُ من خشية الله وخافَ أن تخيبَ آمالُه بالكلّيّة يلجأ إلى الله، ومثلُ هذا الخوفِ فيه من اللَّذة ما لا يُدرَك أعماقُه ولا يحاط بحدوده، فإذا كان الخوفُ تكمن فيه لذَّةٌ على هذه الشاكلة فما بالك بلذَّةِ المحبّة، فالعبوديّة لله إنما تتحقَّقُ بالخشية البالغة مقرونةً بالمحبَّة البالغة، وكذلك الوظيفة التي نسمِّيها "العبادة"، هي عبارة عن الجمعِ بين هذين الأمرين اللذين يبدوان في ظاهرهما وكأنهما متناقضان، ففي العبودية نلاحظُ ونشاهِدُ أن بحارَ المهابة ومحيطاتها تفور، وأنَّ أمواجَ المحبَّةِ تتلاطم، وأن رياحَ الاحترام العميق ونسائمَ السكينة اللامحدودة تهبُّ فتغمر الروح، وهذه هي ماهية "العبادة".

إن الذي لا يُدرِك مدى عجزِهِ وذلَّتِهِ، ولا يعرفُ مدى قيمةِ الرحمةِ والأملِ؛ لهو تعيسٌ سيّئُ الطالعِ، وغير مُدْرِكٍ لنشوةِ العبادة. نعم، إن في روح العبادة تمريغًا وتعفيرًا للوجه في الأرض أملًا في رحمة الله، وفيها ارتعادُ الفرائصِ خوفًا من خيبةِ الآمال، أي إنّ عظيمَ الخوفِ يتداخَلُ فيها مع عظيمِ البهجةِ والسرورِ اللامحدودين، فإذا جمعتُم بين الخوفِ والرجاءِ؛ فلكم أن تؤْمنوا بأنكم في حضرةِ المولى ﷻ وبذلك تقيمون التوازنَ.

أما المتفائلون المتكبرون الذين يصولون ويجولون في شموخ وكبرياء وليس لهم من الخشية والخوف نصيب وتعلَّقَت آمالهم بالأماني والأحلام، والبؤساءُ الذين يتخبَّطون في اليأسِ الذين لم يُدركوا مدى سموِّ مقام العبودية، فهؤلاء كلُّهم لن يستشعروا في وجدانهم لذَّةَ هذه النشوة والطمأنينة.

د. النيَّةُ روحُ العبادة

كما أنه لا بدَّ من مراعاة التوازن والانضباط والعمل ضمن القواعد التي وضعها الله؛ فكذلك لا بدَّ من النيّة الخالصة؛ يقول رسول الله ﷺ: "**رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ**"(٦٠).

فهذا يعني أنه لا بدَّ من أن يتوجَّه القلبُ إليه ﷻ فقط؛ فلن تُعَدَّ الزكاة التي تُدفع من دون تذكُّره زكاةً ولا الصدقةُ صدقةً، بل هي نوعٌ من تبذير المال وهَدْرِهِ هنا وهناك، وشكلٌ من أشكال الأخوَّة والصداقةِ مع الشيطان كما عبَّرَ عن ذلك القرآنُ الكريم(٦١)، والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكَرِ إذا لم يُقصَدْ بهما وجهُ الله يكونان عبارةً عن جدلٍ وخداعٍ للناس بغوغاءِ الكلام والديماغوجية، والجهادُ الذي لا يُبتغى به رضاه تعالى ليس إلا نوعًا من البهرجة والرياء، وهدرًا للثروة والوقت، فلا بدّ أن يكون الهدف والغاية في روح "العبادة" هو "المعبود"، وأن يتوجّه "العبد" إلى "المعبود"، وأن تُقدَّم العبوديةُ إلى "المعبود"، فلا بدَّ من عدم الفصل بين مسمّيات (العبادة - العبودية - المعبود) التي تشترك في أصلِ الاشتقاق.

(٦٠) سنن ابن ماجه، الصيام، ٢١؛ مسند الإمام أحمد، ١٤/٤٤٥.

(٦١) ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (سورة الإسراء: ١٧/٢٦-٢٧).

فالعبدُ يناجي ربَّه قائلًا: مثلتُ بين يديك بذُلّي مستحضِرًا عزَّتَك، وحضرتُ بمهانتي مستشعرًا عظمتَك، فأنا الذي لا أنحني ولا أُخضِع رقبتي لأحد، ها أنا ذا أنحني وأُخضع رقبتي لك، وأدوسُ على كبريائي، وأُمَرِّغُ وجهي بالأرض بروحانيّة السجود لك؛ لأنك أنتَ المعبودُ وأنا العبد، وأنت الخالقُ وأنا المخلوقُ، أتيتُ إلى بابك مُعلِنًا كلَّ فقري وفاقتي لك، لأنكَ وهبتَ لي عقلًا وقلبًا وإرادةً وشعورًا، وجمعتَ هذه الأمور وجعلتَها أركانًا لوجداني، ووجداني هذا يريد أن يقدِّم إليك امتنانه وثناءه، ولْتشهدْ كلُّ الكائنات أنني أنا العبدُ لك، وها أنا ذا أفتخر بهذا.

فالمؤمن حينما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يستشعر ويستذكر هذه المعاني، وليس هذا ذُلًّا وصَغارًا، بل هو تعبيرٌ عن إدراك الإنسان للطريق نحو العظَمَةِ الحقيقيّة، والشطرُ الثاني لكلمةِ الشهادة (وأَشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه) يعبّر عن هذه الحقيقة، إن سيِّدَنا محمدًا ﷺ عبدُ الله ورسولُهُ، إنه قبلَ كلِّ شيءٍ عبدٌ للهِ، وعبوديَّتُهُ مستمرة، كان عبدًا قبلَ أن يكون رسولًا، فجاءَتْهُ الرسالةُ ودامت عبوديّته، وبوفاتِهِ ذهبت الرسالةُ وما ذَهبَتْ عبوديَّتُهُ.

فنحن إذ نخاطِبُ الله بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنما نقصدُ بذلكَ عبوديّةً من هذا النوع.

نعم، إننا لن نتنازلَ عن حرِّيَّتِنا ولو أُوتِينا في مقابلها الدنيا وما فيها، ولن نَقبل الأَسْر لِغَيرِ الله، ولن نُعلِّقَ من أجل غيره تعالى أطواقًا في أعناقنا، ولكن لو كانت لنا أرواح بالآلاف، ورؤوسٌ بقدر شعر رؤوسنا فإننا نفديها بكلِّ سرورٍ وحبورٍ لله الذي خلقَنَا ثم جَعَلَنا نستشعر بوجودِه في وجداننا، وسنواجِهُ كلَّ المخاوِفِ في طريقِهِ، ونضحّي بكلِّ ما نحبُّه في سبيله، ونفعلُ ذلكَ كلَّه بشوقٍ؛ لأنَّنا إذ نَفقِدُ كلَّ شيءٍ فإنّنا سنظفرُ بهِ هو،

ونعتبر التضحيةَ في سبيله غايةَ المُنى، ولإحرازِ رضاه في عبقِ محبَّتِهِ والاحترامِ له سنفضِّلُ العيش في خضمِّ العَرَق والرَّهَق والدموع على العيش في الجِنان.

فنحنُ في غمرةِ هذه المشاعرِ الطافحة والإخلاص في النوايا نحملُ على عاتِقِنا وظيفةً عظيمةً تنوءُ الجبالُ بحملِها وتُشفِقُ على نفسِها منها، يقول الله ﷻ معبّرًا عن هذه الحقيقة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣/٧٢)، فالجبلُ والحجرُ لم يكونا قادِرَين على النهوضِ بحملِ هذه الأمانة، ولذلك أبَيا حَمْلَها لمَّا عُرِضَ عليهما.

هـ. المناسبةُ بين العبادةِ والاستعانة

إن ما بين كلماتِ القرآنِ وجُمَلِهِ من التناسُبِ وما بين تعبيراتِهِ من التناغُمِ والتماسُكِ والانسيابيّة الحلوةِ الرائعة لَخَيرُ مُعَلِّمٍ لنا كيف نتصرَّفُ حينما نتحمَّلُ هذه الأحمال الثقيلة التي أشفقتْ مِن حملِها السماواتُ والأرضُ والجبالُ، وتُنير لنا الطريق، وتسلِّط عليها الأضواء، ونحن بدورِنا بعد أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نلتجِئُ إليه بقولِنا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي لا نطلبُ العونَ إلا منكَ؛ وإلا فستنقَطِعُ بنا السُّبُلُ ونتيهُ ونُصْبِحُ ضائعين هائمين.

والاستعانةُ بالله تعني: طلبَ المعونة منه في كلِّ الأمورِ، والدعاء إليه ليسهِّل العبادات، والاتكالَ على عونِهِ وعنايتِهِ في كلِّ الأمور التي يواجهُها الإنسان، وعلى هذا فنحنُ إنما نطلبُ العونَ في عباداتنا وأعمالِنا بكلِّ إخلاصٍ ومن صميم قلوبِنا وأعماقِنا من الله تعالى فقط لا غيره، كما ورد عن حبرِ الأمَّة عبد الله بن عباس ﷺ أنه قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ

يَوْمًا، فَقَالَ: "يَا غُلَامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"(٦٢).

وهنا أمرٌ لا بدَّ من التنبُّهِ له، وهو أن عونَ الله نوعان: ضروريٌّ، وغيرُ ضروريٍّ؛ فالضروريُّ منه هو ما أودَعَهُ اللهُ برحمتِهِ في ماهيَّتِنا من أعضاء وقابليّات، فنحن نُبْصِرُ بأعيُنِنا، فنأخذُ ما تلتقِطُه أبصارُنا ونقوّمها في مختبرِ الفكرِ، ونحاول أن نصنعَ منه خلايا شَهْدِ المعرفةِ الإلهية، وهذه العمليّة تُجرى في الرأسِ، وقد أودع ﷻ في الرأس الآليّات اللازمة، ووضع بين الآليات مناسبةً، وجعل منها مَصنعًا يُعملُ كلُّ شيءٍ فيه، فكلُّ هذه الأمور التي منحَنَا الله إيَّاها منذ البداية نسمّيها -إن جازَ التعبير- "العونَ الضروريّ"، وإذا حصل النقصُ في أيّ عنصرٍ من عناصرِهِ فلن يستطيعَ الإنسانُ تحقيقَ الأمور المطلوبةِ منه.

وهناك من العون ما هو غير ضروري، حيث إننا إذا فعلنا شيئًا فإن الله تعالى يحفّزنا ويُيَسِّرُ لنا ويهدينا السبيلَ ويأخذُ بأيدينا باسْمِهِ: "الهادي"، وينيرُ لنا الطريقَ ويُرشدنا، ويمكنُ لنا استعارةُ التعبيرِ الأصوليّ لتوضيحِ هذين القِسمين من أقسام العون الإلهيّ؛ فالقِسمُ الأوّل من العون الذي ذرأهُ الله في آلياتِنا الفطرية -وهو الضروريُّ- يُسمّى: "القدرة المُمَكِّنة"، وهي: عبارةٌ عن أدنى قوّةٍ يتمكَّنُ بها المأمورُ من أداءِ ما لَزِمَهُ، والقسمُ الثاني -وهو غيرُ الضروريّ-: "القدرة المُيَسِّرة"، وهي: ما يوجِبُ اليُسْرَ على الأداء، فكلُّ الأعمال التي نقوم بها، إنما ننجِزُها بالأعضاءِ والقابليّاتِ

(٦٢) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٩؛ مسند الإمام أحمد، ٤/٤١٠.

التي خلقها الله وأودعها فينا فطرةً؛ وهذا ما أشرنا إليه بالقوة الممكِّنة، ثمَّ نحقق ذلك بالاعتماد على عنايتِهِ ولُطفِهِ وتيسيرِهِ؛ وهو ما أشرنا إليه بالقوّة الميسِّرة.

ولا بدّ لي في هذا السياق من التنويهِ بما يلي:

إن الله خلقَنَا وهو هو خالقُ أفعالِنا وتصرُّفاتنا التي ننسبُها إلى أنفسنا قائلين: "فعلتُ، أنجزتُ"، فـ"الخَلقُ الأولُ" "جَبْريٌّ"، والله تعالى لم يستشر الإنسانَ في هندسةِ الكون الذي خلقَهُ، فهو الذي خطَّطَ له بنفسِهِ، وهو الذي خلقَهُ، وهو الذي أوجدَهُ وأنشأه، فالذي يهيمن على هذا الجانب من الأمر هو "الجبرُ" والحاكميةُ المطلقة بكلِّ ما للكلمةِ من معنى، وللإنسان من الإرادة ما يُكسبه الجنةَ أو النارَ ويؤدي به إلى إحداهما، وقد مُنحَ الإنسانُ هذه الإرادَةَ برحمةٍ من الله تعالى، وكما كان اللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ كذلك هُوَ هُوَ خالقُ الأفعال التي يكسبها الإنسانُ بإرادته.

فالله تعالى إذ يقول في كتابه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيُعلِّمنا التوجُّهَ إليه، ويمنحنا صلاحيَّةَ طلبِ المعونة منه؛ فكأنه يقول: إن لكم أن تستعينوا؛ فمنكم الطلبُ والكسبُ والتوجُّهُ، ومنِّي الخلق والإيجاد والأخذ بأيديكم، وكذلك منكم التحفُّزُ والمبادرةُ، ومنِّي السموُّ بكم نحو أعلى الأعالي، ونحن بدورِنا إذ نستجيبُ لِأَمْرِهِ ﷻ، فنطلب منه ونتعلّم من كلامه المجيد كيفيَّةَ الاستعانة؛ نلاحظ أننا قد أوتينا صلاحيَّةَ الطلب والسُّؤْلِ منه ﷻ، ففي كلِّ أعمالنا التي نُنْجِزُها هنا جانبٌ من أثر "الفاعلِ الخالقِ" ﷻ؛ فكلُّ ما يأتي إلى الوجود هو خالقُه، أي "خَلْقُ" أفعالِ العباد منه، وأما "الكَسْب" فهو منا، وفي أفعالنا يجتمع هذان الأمران.

وقد أوتي الإنسانُ في هذا المقام حَظْوةً وشرفًا؛ بحيث إن الخالق يقاسِمُهُ الأمرَ؛ بمعنى أننا نقوم بالعبوديّة، والله يأخذُ بأيدينا، وإذا فَهِمْنَا

الموضوعَ على هذا الشكل فلن يكونَ هناك مجالٌ للانحراف نحو "الجبر" أو"الاعتزال".

وأودُّ هنا أن أتطرَّقَ باختصارٍ شديدٍ إلى موضوعِ "القَدَر"، وإن كان من الأنسبِ تناولُ هذا الموضوع ضمن مباحثِ القَدَرِ، حيث سَبَقَ أنْ تناولناها في بحثٍ مستقِلٍّ.

إن الأشياء قبلَ أن تُخلقَ كانت موجودةً في علمِ الله "وجودًا عِلميًّا"، ثم خُلِقَتْ وأُوجِدَت بقدرةِ الله وإرادَتِهِ وفقَ هيئاتها في علمِ الله، و"عِلمُ اللهِ" بالوقائع قبل أن تَحدث لا يُجبِرُها على الوجود بشكلٍ أو بآخر، لا سيّما الإنسانُ -الذي جُلُّ رأسماله عبارةٌ عن الكسبِ- أينما تَوجَّهَ بإرادَتِهِ فالله ﷻ يَخلُقُ الأمور على حسب ذلك.

والقَدَرُ يعني حُكْمَ الله للأشياء التي ستوجَد بأن كيف ستوجَد، وأن يَعلمه اللهُ تعالى بعِلْمِهِ الأزليّ آخذًا إرادةَ الإنسانِ -إن صحَّ وجازَ التعبير- بعينِ الاعتبار.

فتسجيلُ الأعمال التي سيُنجِزُها الإنسانُ في صحائفِ العلمِ الإلهيّ -مع اعتبار الإرادةِ البشريَّةِ- ليس مجبِرًا الإنسانَ على فعلِ هذهِ الأعمالِ، وهذا يردُّ ما يقول به المعتزلةُ وما يقول به الجبريّة بتاتًا. أجل، إن العملَ والكسبَ مِنَّا، والخلق والإيجاد من الله ﷻ، والتوجه نحو العمل هو مِنَّا، وأما الأخذ بأيدينا فهو منه ﷻ، فمنَّا العبودية، ومنه أن يُدخِلَنا الجنة.

وهكذا فإنَّ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تعبيرٌ ذو حلاوة -وأيَّةُ حلاوةٍ- عن مقابلةٍ بين الخالق والمخلوق؛ فهذا تعاقُدٌ وتعاهُدٌ من الشرفِ ومن السموّ بحيث إن البشريَّةَ لم ترقَ إلى شرفٍ وحظوةٍ أسمى منه؛ فلو قيلَ لأحدِنا: لقد تبوَّأْتَ منصبَ السلطان على البلدِ الفلانيّ، فإن هذا المنصبَ العالي والمقامَ الراقي يتضاءَلُ أمام هذا التعاقُدِ الذي حصلَ بين الإنسان

وربِّ العزَّةِ الذي له مقاليد السماوات والأرض، والذي يتوجَّهُ إلى قلبِكَ في هذه الدائرة الواسعةِ للربوبيّة، ويقلِّبُهُ بين إصبعيه، إن مقاولتك هذه وقولك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لهو شرفٌ عظيمٌ لك يستعصي على كلِّ الأوصاف.

أجل، إن الله الذي يتصرَّفُ بعنوان "رب العالمين"، ويسوقُكَ نحو الكمال، والذي جَعل باسْمَيه: "الرحمن" و"الرحيم" وجهَ الأرض مائدةً وعالَمك الخاصّ مائدة أخرى فتجلَّى برحمانيَّتِهِ ورحيميَّتِهِ، بمعنى أنك إذا تناولْتَ لقمةً إلى فمِكَ فإنه تعالى بالنظام والآليَّة التي وضعها فيك يبلِّلُ تلك اللقمة، وبرحمتِهِ يجعلُ غدَدَ معدتِكَ تفرزُ الماء، فيُسهِّلُ عمليَّةَ الهضمِ ويحرِّكُ جهازَ الأمعاءِ والكبدِ والكلى وكثيرًا من الأمور التي لا تُحسّ بها أنت ولا تشعر، ويُريك مِن وراء كلِّ حادثة رحمانيَّتَهُ ورحيميَّتَهُ، ويبسطُ لك على وجهِ الأرضِ موائدَ أفخمَ وأحسنَ وأرقى من الموائد التي تبسطُها أنت، ويلبّي -من خلال الأمور التي يقدِّمها لك ولأمثالك- ما تحتاجونه من الفيتامينات والبروتينات، وفوق ذلك يُريك رحمانيَّتَهُ ورحيميَّتَهُ من خلال ما يوجِد في ألفِ نوعٍ ونوعٍ من النِّعَمِ من الطعمِ واللونِ والرائحةِ الطيبة، فذلك عرَّفك اللهُ بنفسِهِ، وبذلك أعطاك شرفًا وحظوةً.

ثم باسمه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ جَعَلَك تَشعُر في وجدانِكَ بِذاتِهِ، وذكَّرك بيومٍ يُجَازَى فيه الخيرُ والشرّ، فدعاك بذاك للاستعداد والتهيُّؤِ له. نعم، إنك تخطو اليوم خطواتك حسبَ الغدِ، فالله هو الذي حباك بذلك، إنك اتخذتَ هيئةً حسبَ تكوينك المعنويّ وحياتِكَ الروحيَّة، وجمعت مقدارًا من الثروة، ولكن رأسمالك إنما أتى منه ﷻ؛ لأنه هو الذي منحَكَ المواد الأولية بلطفه وإحسانه، ثم هو الذي هداك إلى الطريق الحق، ووفَّقك للأعمال الصائبة.

ولكن بالإضافة إلى ذلك كلِّه، تَوجَّهَ إليك وخاطَبك كأنَّ لك دَخْلا ومالكيةً في كلِّ ما أحرزتَه، وكأنك مالكٌ لبعض الأشياء، فقال لك في معادلة ومقابلةٍ: "يا عبدي، منك الكسب ومني الخلق والإيجاد، منك السير في طريق الجنة، ومني إدخالك الجنة، منك اجتنابُ المعاصي، ومني التوفيق..."، قال ذلك وكأنه يتعاقدُ معك، فنحن إذ نقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما أن الرسول الأكرم ﷺ سلَّم على الله ليلة المعراج فتَلقَّى السلامَ، وكما أنه تَقبَّل لأمَّتِهِ من الله هديَّةَ الصلاة، وكما أنه خُفِّفَ عن أمَّتِهِ التكليفُ في عددِ الصلوات من دون نقصٍ في الثواب، فنحنُ كذلك في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نحسُّ ونشعر بكلِّ كياننا بالتعاقُدِ والمقاولةِ نفسِها، وتطفحُ قلوبُنا التي سَئِمَتْ الأغيارَ، بالمشاعر ذاتِها.

و. العبادة والوعي الجماعي

ومن جانب آخر فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يبعث فينا الشعور الجَماعي. نعم، فنحنُ بهذه الصيغة نترُك "أنا" ونقول: "نحن"، فهذا القول يقوله واحدٌ منا ويُنْصِتُ له الآخرون، والصلاة رمزٌ لِحياتِنا الاجتماعية وتوازُنِنا وانتظامِنا، فإذا نحن أحسَسنا بهذا في الصلاة، فسيَظهر ذلك في حياتنا الاجتماعية بكلِّ وضوحٍ، فـ"نحن" ليست تعبيرًا عن طائفةٍ من الناس اجتمعوا اجتماعًا عشوائيًّا، بل إنها تعني: أننا مجموعةٌ منتظِمَةٌ متناغمةٌ تتمتَّعُ بالوَحْدَةِ الروحيَّة.

فالإنسان الفرد يَرقى بهذه الفكرة إلى مستوى الوعي الجمعيّ، ويتحرَّرُ من العيشِ العاطفيّ، ويسمو إلى مستوى العيش المنطقيّ والعقليّ، فَيُصْبِحُ لائقًا بأن يكون عضوًا في المجتمَعِ، وهذا الأمرُ منوطٌ بمدى سعة "وجدانِ" الفردِ أو ضِيقِهِ؛ فالمجتمعُ الذي يتشَكَّلُ من الأفراد ذوي

الوجدان الواسعِ يكون ذا أساسٍ متينٍ عريقٍ راسخٍ، وذا ديمومةٍ بمدى سعة الوجدان، وأما ضيّقو الوجدانِ الذين لا يعرفون التسامحَ فيما بينهم، فإنّنا نعتبِرُ المجتمعَ الذي يتكوَّن منهم مجرَّدَ "حَشدٍ من الناس"؛ لأن هؤلاء لم يرْقَوْا إلى مستوى العضويّة لأيّ مجتمعٍ، أما ذلك الجمع الذي حاوَلْنا تحليلَهُ ووصفَهُ، فهو مجتمعٌ منتَظِمٌ، وما يشاهَد لأوَّلِ وهلةٍ من التطبيقِ العمليّ لهذا الجمعِ هو أن تؤدَّى فيهم الصلوات جماعةً، فمعلوم أن أداء الصلاةِ جماعةً سنةٌ مؤكّدةٌ عند الحنفيّة والمالكيّة، وواجبٌ عند الحنابلة، وفرضُ كفايةٍ عند الشافعيّة.

والله ﷻ قد أَدرَج في العديد من الآيات القرآنيَّةِ العناصرَ المهيِّئَةَ لمجتمَعٍ كهذا، ووَضَعَ القوانينَ اللازمةَ لإعدادِ هذا المجتمَعِ وتربيتِهِ؛ فهو قد بدأ بإعدادِ الأفرادِ الذين سيُشَكِّلون هذا المجتمعَ.

إن إعداد الأفراد سيكون مستنِدًا إلى الوحي وعلى أيدي الأنبياء، ومِن بعدِ الأنبياء على أيدي المجتهِدين والمجدِّدين، فالأفرادُ بعدما يُحرِزون الجدارةَ شيئًا فشيئًا ويصبحون لائقين بالعيشِ المجتمعيّ يبدؤُون بالتجمُّعِ فيما بينهم، وبالانضِواء تحت قانونٍ وحاكميَّةٍ واحدةٍ يتكاتَفون وينسَجِمون ويُصْبِحون كأنّهم أعضاء الجسدِ الواحِد، وهذا الانسجامُ والتوافُقُ إنما يتحقَّقُ بالوَحْدَةِ في القوانين والمبادئ التي يتمسَّكُون بها؛ فإذا لم تكن هناك وحدةٌ واتّفاق على القوانين والمبادِئ، ولم يكن الناسُ متوجّهين في الرغبة والرهبة إلى البابِ نفسِهِ، فإن الفرقةَ والتشرذُمَ سيُطِلّانِ برأسِهما، ومن المستحيلِ بتاتًا أن يتشكَّلَ مجتمعٌ مثاليٌّ متكاتِفٌ مترابطُ الأفراد مِن أفرادٍ مُشَتَّتَةِ العقولِ مُتَشَرْذِمَةِ القلوب.

فحينما يَأمرنا القرآنُ المعجزُ البيانِ أن نقول: "نعبد" (بصيغة الجمع) بدلًا من "أعبد" (بصيغة الإفراد)، فإنه يهدفُ إلى تكوينِ مجتمعٍ بهذه

الأوصاف، وذلك يشيرُ ويُرشِدُ إلى أن أولئك الأفراد المثاليّين ستتشكَّلُ منهم تَكَوُّناتٌ جديدة، وكما أن هناك ذرَّاتٍ وجُزَيئاتٍ تسري إلى دماغ الإنسان، سيكون من بين هذه التكوُّنات أيضًا أناس قد تَصَفَّوْا وأصبحوا جديرين لأن يتبوَّؤُوا موقِعَهم اللائق بهم في دماغ المجتمع، وهؤلاء سيقودون المجتمع، وهكذا ستكون الآليَّةُ الإداريَّةُ قد تَشكَّلَت تلقائيًّا، وهؤلاء ذووا الوجدان الواسِع، لا يعانون من عُقَدٍ نفسيّة، ولا يربّي أمثالَ هؤلاء إلا الأخلاقُ والتربيةُ النبويّة.

وذِكرُ شرحِ صدرِ النبيّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشَّرْح: ١/٩٤) في مقامِ الامتنانِ له من المغزى ما هو عظيمٌ وعميقٌ؛ فذاك نبيّ الله فَتَحَ للآخَرين صدرَهُ وقلبَه على مصراعيهما، وقابَلَ أسوأَ المعاملات والتصرُّفات بالتسامحِ والرِّفقِ، فدلَّنا على الطُّرُقِ المؤَدِّيةِ إلى تشكيلِ مجتمعٍ، فلذلك نقول: إن المجتمع إنما ينمو ويتقوَّى بقدر سعة الوجدان وانفتاحِهِ وانشراحِهِ، أي إنَّ أداءَ أيِّ مجتمَعٍ دورًا محوريًّا في مقدَّرات التاريخ ومجرياتِ الأحداث؛ مرهونٌ ومربوطٌ ربطًا قويًّا بمدى سعةِ أو ضيقِ وجدان الأفراد الذين يشكِّلون ذلك المجتمع.

إن الأمر الذي يُنمّي المجتمع هو وجدان الأفراد؛ فإذا كان الفردُ متحجِّرًا أنانيًّا، فإن هذا المجتمع وإن تشكَّلَ مؤقّتًا لكنه لن يدوم، ستتقوَّضُ أركانُهُ بمرورِ الوقتِ فيزول؛ وأما إذا كان الأفرادُ متسامحين وكان وجدانُهم واسعًا بكلِّ ما تعنيه كلمةُ "السَّعَةِ"، وكانوا مثلَ الرسول ﷺ مُحْرِزين لسرِّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشرح: ١/٩٤) فإن المجتمعَ الذي يؤسِّسُونه سيكونُ راسخًا صامدًا؛ يستطيعُ كلُّ أحدٍ أن ينخرِطَ فيه بكلِّ سهولة، وقد لا يتأتَّى إنشاءُ مثل هذا المجتمع في وقتٍ قصيرٍ ويستغرقُ زمنًا طويلًا،

ولكنه يكون ذا عمرٍ طويلٍ، وبمرور الوقت يمكن أن يكونَ متحكِّمًا في مجرياتِ التاريخ، وهذا هو طريق الرسل ومسلكُهم، والرسول ﷺ أرانا في نفسهِ -بشكلٍ مثاليٍّ- ميزةَ كون الإنسان ركنًا أساسيًّا في المجتمع، ومِن بعدِه نرى هذا الأمر في أكمل صُوَرِهِ في الجماعة التي أسَّسَها، فنرجو الله ﷻ أن يتفضَّلَ على "أهلِ القرآن" في آخر الزمان بسعةِ الصَّدْرِ هذه، إنهم سيُضْفُون على الإنسانيَّةِ وجهًا مُشْرِقًا مختلفًا، وسيفتحون طرقَ العِلْمِ التي انسدَّتْ، ويُحقِّقون للإنسانية التحليقَ في الأجواء الماديّة والمعنويّة، وإننا إذ نطلبُ هذا لفي أملٍ من رحمة الله الواسِعَةِ.

وأما أصحاب الوجدان الضيّقِ والقلبِ القاسي الذين يعيشونَ تحتَ سيطرةِ عُقَدِهم وعواطِفِهم، فمع أن بإمكانهم أن يعيشوا في مجتمعٍ منسجِمٍ متناغِمٍ من غير أن يُخِلُّوا بتناغُمِهِ وانسجامِهِ، لكن يستحيلُ تشكيلُهم مجتمعًا جديدًا، كما أنه ليس من المعقول أو المتَظَرِ بتاتًا ممّن هم أسارى نوازِعِهم؛ وممّن يحتكِرون الفكرَ لأنفسِهم ويريدون من كلِّ أحدٍ أن يُفَكِّرَ مثلهم؛ ليسَ من المعقولِ أن يُكوّنوا مجتمعًا ناجحًا.

إن المجتمعات المبنيّة على احترامِ الآخرين، وعلى رؤيةِ كلِّ مسلكٍ في طريقِ الحقِّ حقًّا، والتي آمنَ أربابُها بأنَّ المسالِكَ الأخرى غيرَ مسلكهم يمكنُ أيضًا أن تنطويَ على نوًى وبذورٍ للحقيقة، والتي توسَّعَ وجدانُ أربابها، وتفتَّحَتْ صدورُهم للآخرين على مصاريعِها، فولّوا وجوهَهم شطرَ الحقِّ، وتحلَّوا بالتسامح؛ إن المجتمعات التي بناها هؤلاء قد ظلَّت معمَّرة ومتَّسِمَةً بالديمومة، فنحن في معاهدةِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نستحضرُ هذا الأمر أيضًا، ونشاهِدُ معا المحركاتِ الأساسيّةَ للمجتمع الإسلامي، إن الله ﷻ يأمرنا بأن نقول "نحن" بدلًا من "أنا"،

وهـذا يعنـي أنْ تَخَلَّوْا عن أنانيتكم وقَدِّمـوا عبادتكم وقرباتكم لله ﷻ مـع الآخرين مستحضرًا هذه المعاني: "يا رب! إنني شـخصيًّا لا يُؤْبَهُ بي ولا يؤبَهُ بعبوديَّتي، ولكني مُنْخَرِطٌ بين هؤلاء الناس، وأقوم بالعبوديَّة وأنا بين أظهرهم، إن هؤلاء يقدِّمون لك عبوديَّتَهم وهناك على وجه الأرض مئاتٌ بـل آلافٌ مؤلَّفـةٌ يقدِّمـون لـك عبوديَّتهم بـدءًا من جماعـة ذرَّاتٍ وخلايا جسـمي -حيث إنها جماعة تشـكَّلَت جبرًا-، ومرورًا بجماعاتِ الأشجار والنبـات والحيوانـات -حيث إنهـا جماعات طبيعيّة فطريّـة-، وانتهاء إلى جماعات البشر والملائكة والجِنّ -حيث إن هؤلاء جماعات ذات إرادة-، وأنا أقول بكلِّ إخلاص من صميم قلبي بأنني أقدِّم وأَعرِضُ لك عبوديَّتي الناقصـة ضمـن عبوديَّـتِهـم، فإني وإن لم يكن لي أن أقول شـيئًا بمفردي، وأطلبَ شيئًا لوحدي؛ فإني لا أقول: "أنا" بل أقول: "نحن"، وأنخرطُ بينهم وأومِـنُ بـأن حياتي لن تـدومَ إلا بحيـاةِ الجماعة، وبمقتضـى كوني مدنيًّا بالطبـع أَتَّبِـعُ الإمامَ الذي أقف خلفه، وأستمـعُ لما يتلوه".

ز. توحيد العبوديّة وتوحيد الربوبيّة

بغضِّ النظَرِ عما دارَ حول توحيدِ الربوبيّة وتوحيد الألوهية أو العبوديّة مـن اختـلافٍ؛ فإننا سـنتناولُ هـذه المصطَلَحاتِ بإيجاز فنقـول: إنّ لِقوله تعالـى: ﴿إِيَّـاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾ وجهًا آخـر متعلِّقًا بتوحيـد العبودية وتوحيدِ الربوبية، ولنحاولْ بيانَ ذلك:

إن الله ﷻ بيَّـن لنـا إلـى هذه الآية أنـه هو الله رب العالميـن، وأنه هو الذات الأجلّ الأعلى الذي ليس له شبيهٌ ولا مثيلٌ ولا ضدٌّ ولا ندٌّ، وليس لـه شـريك في تربِيَتِـهِ للعالميـن، وأنَّ كلَّ شـيءٍ -بدْءًا من ذرّات جسـمِنا وانتهاءً بأبعَدِ الأنظمةِ والمجرّاتِ والسُّـدُم- بِيَدِهِ وتحت تصرُّفِهِ ﷻ، وبيَّن

بقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أنه هو الرحمن الرحيم الذي لا شريكَ ولا شبيهَ له في إسداءِ الرحمة، وأن كلَّ شيءٍ يحصل على ما يحتاج إليه؛ وأنَّ كلَّ شيءٍ -بدءًا من ذرّات جسمِنا وحتى الأنظمةِ السماويّة الكبرى- يعمل على أكمل وجه، وأنه تعالى هو المالك الوحيد ليوم الدين، وأنه -وإن كان الخيرُ والشرُّ، والحَسَنُ والقبيح، والإيمان والكفرُ، والهدايَةُ والضلالةُ، والمحسنُ والمُسيءُ متداخلًا مختلِطًا هنا في الدنيا فإنه- سيميّزُ يومًا بعضَهُ عن بعض ويقول: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٥٩).

فالله تعالى بكلِّ ما سَبَقَ من الأمور شَرَحَ لنا وحدانيتَه، والواقعُ أنه ﷻ لو لم يَشرَحْ لنا ذلك لفهمناه بمجرد النظرِ إلى الوجهِ النظيفِ الناصِعِ للكونِ وبقراءة كِتابِ الكائنات، ولَأدرَكْنَا وحدانيَّتَهُ بكلِّ سهولةٍ ويُسرٍ، هذا هو "توحيد الربوبية".

فهو ﷻ ربُّك، هو وحده منحَكَ ما منحَكَ، فأنتَ أخذتَ ما أخذتَهُ كلَّهُ منهُ وحدَه، فما عليك إلا أن تخضَعَ له وحدَه، وألا تلتَفِتَ إلى ما سواه، وأن تتوجَّه إليه بقدرِ إخلاصِكَ له.

فأنت إذا استطعتَ أن تفعلَ هذا فستُظهر بالفعل أنك إنما تقوم بالعبوديَّةِ له وحده، وتطلبُ ما تطلبُ منه وحدَه، فهذا هو "توحيد العبودية" مقابل "توحيد الربوبية"؛ بمعنى حصرِ العبوديّة له فقط؛ فكما أن الربَّ واحد، فالعبد كذلك لا بدَّ له من أن يقول:

"إنني خاضعٌ لك وحدَكَ يا ربي! فكما أنك سَخَّرْتَ لي الكونَ وجعلْتَهُ تحت أمري، فإني كذلك مسخَّر لكَ ولأمرِكَ، فما أحلى هذه المسخَّريّة، لأني محظوظٌ بِنِعَمِكَ أنتَ".

هـذه هـي مقابلـة "توحيـد الربوبيـة" بـ"توحيد العبوديـة"، فالتُّعَسـاء الذيـن لم يدركوا هذا السـرَّ اتخذوا الحجر والشـجر والبقـر... إلخ آلهةً، وعبدوا الظُّلْمة والنور، واصطنعوا إلهين باسم: "يَزدان" و"أهرمن"، ولهثُوا وراءهمـا، والذيـن لم يَرْقَوْا إلى مسـتوَى تـذوُّقِ حـلاوةِ العبوديّة للمعبودِ المطلَقِ، تعلَّقَتْ قلوبُهم بآلاف من المعبودات، وربطوا أفئدتهم بآلاف من المحبوبات، فخابوا وخسروا وسقطت أحلامهم.

الحمد لله الذي هدانا -تحت تعليم سـيدنا محمد ﷺ وإرشادِ القرآن- إلى سـبيله المؤدِّي إلى العبودية أمام الألوهية المطلقة والربوبية المطلقة، ولم يتركنا هاملين في العراء.

آيةُ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

إن العبودية لله ﷻ لهي من شأن ذوي الاستعدادات والقدرات الكبيرة، والفردُ لا يستطيع بمفردِهِ أن يقوم بعبوديةٍ تُناسِب عظمة الله إلا ضمن مجموعةٍ يَعتمدُ هو عليها ويتقوى بها.

إن العبد الذي يحسُّ بعجزه وفقره في حالةٍ كهذه بعدما قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وحصر طلبَ المعونةِ في الله تعالى وهو يأمل المددَ الإلهيّ منه لا من أحدٍ سواه، لكنه لا يعلم ما هو الأفضل له، فإن الله ﷻ يُعلِّمه ما ينبغي له أن يطلبه أوَّلًا، ويأمرُه بأن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، إذ الإنسان لن يستطيعَ أن يُنظِّمَ حياتَهُ الفرديّة والروحية، ولا العائليّة والاجتماعية من دون هداية الحقّ ﷻ.

فتحليل روح الإنسان ودراستُه بكل جوانبه الإيجابية منها والسلبية، إذا قمتَ بهما حسبَ المعايير البشريّة، فهذا سيؤدّيك إلى نتائج خاطئة ألبتّة؛ وإذا قمت بهما حسب المعايير الإلهيّة فإن الحقيقة ستنجلي وتُدرَك، وستنكشف جوانبُ الروح الخفيّةُ فتصبحُ كأنها في وَضَحِ النهار.

وكذلك لا بدَّ أن تؤسَّسَ البنيةُ العائليّة وتنظَّمَ حسب المبادئ الإلهية؛ فكلُّنا يشاهِدُ ما أدَّت إليه الأفكارُ والفرضيّات التي تُخالف هذه المبادئ.

والمجتمع الحقيقيّ -بكلِّ معنى الكلمة- لا يمكِنُ أن يؤسَّسَ إلا في إطارِ المبادئِ والمعاييرِ الإلهيّة؛ لأن الاتّفاق إنما يتأتّى من الهدى، وأما غير ذلك من الاتفاقات فما هي إلا اتفاقات ليس لها مستقبل واعد، بل هي في الحقيقة اختلافاتٌ خفيّة رهيبةٌ، والذي أُسِّسَ على هذه الاختلافات لا يمكن أن يُسمَّى "مجتمعًا".

فهداية الله أمر ضروري لإزالة أنواع الخلل هذه، وللكشف عن الأنسب، ولذلك نطلب من الحق ﷻ أن يهدينا إلى أقوم الطرق فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

أ. ماهية الهداية

الهداية هي تلبية الله ﷻ حاجاتِ الإنسان الضعيف الفقير الذي يحتاج إلى أشياء كثيرة، بحيث تغطّي كلّ حاجاته، و"اهدِ" في العربية صيغةُ طَلَبٍ للمخاطَب، وهذه الصيغةُ إذا وردت من الأعلى فهي أمرٌ يُجبِرُ المخاطبَ على الفعلِ والتنفيذِ، وإذا وردت من الأدنى فهي دعاءٌ، وإذا وردت من النِّدِّ للنِّدِّ تُسَمَّى "الْتِماسًا".

وكلمة "اهْدِ"في موقِعِها هنا إنما هي مِنَ النوع الثاني؛ فهي تضرُّعٌ ودعاءٌ من الأدنى إلى الأجلِّ الأعلى.

والهداية هي الدلالة على المقصود، فنحن نسأل الله ﷻ أن يُعينَنَا، ويدلَّنا على الطريق الصحيح، ويأخذَ بأيدينا ويلطفَ بنا، ولا يَكِلنا إلى نَزَواتِنَا وأحاسيسنا طرفةَ عين، ولا يُطغينا ولا يُضِلّنا ولا يتركَ لنا فرصةً سانحةً لأن نَضِلَّ أو نَطغَى، فهذا هو ما يسمّيه المفسِّرون "الدلالةَ الموصلة".

ب. أنواع الهداية

إن كلمة "الهداية" تُستَعْمَلُ في اللغة العربيّةِ متعدِّيَةً ولازمةً، وفي هذا نكتةٌ لطيفةٌ ترمزُ إلى أن الهداية نوعان: ما يكون بالواسطة، وما يكون بدون واسطة؛ فأحيانًا ما تكون كلّ الوسائل والوسائط متأتّية جاهزة، ولكن الإنسان لا يحرزُ الهدايةَ؛ في حين أنه قد يمكن أحيانًا إحرازُ الهداية في ظروفٍ غير متلائمةٍ بالمرّة.

فابنُ سيدنا نوح عليه السلام لم يكن له نصيب من الهداية مع أنه وُلد وترعرع تحت رعايةِ نبيٍّ من أنبياء الله، وهذا بينما تربّى سيدنا إبراهيم عليه السلام في بيت "آزر"، وموسى عليه السلام في قصرِ "فرعون".

فهذه الأمور تُبين لنا الهدايةَ بنوعيها؛ فإن الله جل جلاله ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾ (سورة الرُّوم: ١٩/٣٠).

إن الله هدانا، وهدايتُه على أنواع شتّى، فبادئ ذي بدءٍ لقد منحَنَا ما تتطلَّبه إراداتُنا الروحانية والجسمانية. نعم، توجد بين جنبينا إرادةٌ روحانيّة وإرادة جسمانية، إذ إننا نتكوَّن من روحٍ وجسمٍ، وكلٌّ منهما من عالَمين مختلِفَين، ولكلٍّ منهما مطلبٌ وميزةٌ تخصّه، وإنهما إنما يجتمِعان بهداية الله جل جلاله، ولا يجد الإنسانُ الطريقَ إلى السكينة والسعادةِ إلا باجتماع هذه الأمور وانسجامِها.

واللهُ يهدي الإنسان فيجمع بين قوَّتِهِ العقليّة وقوَّتِهِ الطبيعيّة، وإلا لطغى العقلُ؛ فكم من عاقل سليم في محاكماته العقلية لا يعرف الله ولا رسوله ولا كتابه، ويتقلّب متنقِّلًا من فرعونيّةٍ إلى أخرى، وأما الذين هدى الله عقلَهم فليسوا كذلك، فالهدايةُ بالنسبة إليهم هي أن يوصِلَ اللهُ عقلَهم إلى ما خُلق له.

ولنا جانب آخر يتعلّق بالطبيعة، قد هدى اللهُ هذا الجانبَ أيضًا إلى

غايَتِهِ، فلم يجعلنا مثل الحيوان والنبات، وهذا نوعٌ آخر من هداية الله ﷻ.

ومن ضروبِ الهدايةِ ما ساقه الله ﷻ لنا من التفريق بين الحقِّ والباطل، وقولُه تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (سورة البَلَد: ٩٠/١٠) يُبيِّنُ أنه قد مَيَّز الحقَّ عن الباطل والصلاحَ عن الفساد والخيرَ عن الشرِّ بوضوحٍ وجلاء، وبيَّن السبيل إلى الأمرين، فقد تحقَّقت الهداية به.

وإنزالُ الكتب وإرسال الرسل أيضًا من أشكال الهداية، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (سورة الإسْرَاء: ١٧/٩) وقولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (سورة الأَنْبِيَاء: ٢١/٧٣)، يدلَّان على أن الرسل والكتب من وسائل الهداية.

فمِن كل ما سبق نفهم أننا مُنِحْنا أنواعَ الهداية الإلهيَّة في كلِّ مرحلةٍ من مراحِلِ رحلتِنا في عالم الأرواح، وعالم الذرات، وعالم الإنسانية، فَمِن الحقيقِ بنا أن نقفَ عند هذه النقطةِ ونقول: "إن هدايةَ الله في حقِّ الإنسان مستمرّة لا نهايةَ ولا حدودَ لها.

والوحيُ والإلهام وحلُّ رموز الأسرار، وظهورُ حقائق الأشياء، وإبلاغُ بعض الأمور عن طريق الرؤى الصادقة... إلخ كلُّ ذلك من أنواع الهداية، ولكن هذه الأنواع تخصّ بعضَ الناس دون بعضٍ.

فنحن إذ نقولُ: ﴿اهْدِنَا﴾ سنستوعِبُ هذه المعاني كلّها وسنحاوِلُ أن نفهمَ الهدايةَ بكلِّ ما تعنيه، وسنستَشْعِرُ مدى عظمةِ لطفِ الله بنا ونعمتِه علينا؛ حيث إنه ﷻ في ضمن تربِيَتِهِ التي شملت كلَّ الموجودات، هدانا من بين العديد من الطرقِ الملتويةِ والمعوجّة المنحرِفة إلى طريق الإسلام الذي هو الطريق الصحيح.

نعم، فنحن مَرَرْنا ببرازخَ وعقباتٍ كثيرة بدءًا من عالَمِ الذرّات، إلى

عالـم الحيوانـات، إلـى أن وَصَلْنـا إلى عالَمِ الإنسـانيّة، لكن لـم يكن لنا أيُّ دخـلٍ ودورٍ حينمـا كنّا نمـرُّ بكلّ ذلك، وكنّا دائمًـا على الهداية، وفي حين أن هناك ملايينَ من بني الإنسـان ممّن هم أعقلُ منّا وأكثرُ اسـتعدادًا وقابليّـةً، ولكنهـم يتخبَّطون في الضـلالاتِ، إذا بنا وقـد تَداركَنَا نوعٌ آخر من الهداية، فتَشَـرَّفْنا بدين الإسلام، وصرنا أمةً لسيدنا محمد ﷺ الذي هو أشرف المخلوقات.

فنحـن بدورنـا نقدم له تعالى الحمدَ، ونسـبحُه مقابلَ هذه وغيرها من أنواع الهداية اللانهائية.

ج. كلمةُ ﴿الصِّرَاطَ﴾

وردت كلمة "الصراط" هنا مُـعَرَّفة باللام، وهذا يفيد أن الصراط الذي نطلـبُ الهداية إليه صراطٌ معهـودٌ معلومٌ، أي اهدِنا ذلك الصراط المعلومَ الـذي سـار عليه مِن قَبْلنـا آلافُ الأنبياء وملايينُ مـن أوليائك الصالحين، فهذا الصراط هو طريقٌ معلومٌ يَعرف الجميـعُ المقصودَ منه، وشارعٌ واسـعٌ يستطيـع كلُّ أحدٍ أن يسلُكَه.

والصادُ في كلمة "الصراط" أصلُهُ السين، ولكنّها قُلِبَتْ صادًا لتُجَانِسَ الطـاءَ في الإطبـاق، وكتبوه بالصاد في المصحفِ الإمام (مصحفِ سـيدنا عثمان ﷺ الذي كتبه للناس واعتُمِدَ كنسخَةٍ أمّ).

إن طلبَ الهداية إلى الصراط المسـتقيم في الآية يذكّرنا بوجودِ طُرُقٍ أخرى ضيّقةٍ أو واسـعة وبصعودها ونزولها، ويُذكّرنا أيضًا بالصراط ذلك الجسـرُ الممـدودُ على متـنِ جهنَّم، والـذي لا بدَّ لمن يريد دخـولَ الجنّة من أن يمرَّ بِهِ.

وقـد يكـون من المفيـدِ أن نسـتطرِدَ قليلًا فنقـول: لا بدَّ لِفَهْـمِ معاني

القرآن الكريم فهمًا تامًّا من فهمِ المفردات القرآنيّة والمعاني الجانبيّة لهذه المفردات بالإضافة إلى ما تَرمز إليه من المعاني، فإذا تَحقَّق فهمُ هذه الأمور، أصبحتْ كلُّ آيةٍ من آيات كلام الله تعالى كأنها منظومةٌ سماويّة أو نجمةٌ تغمز لنا بطرْف العين، فإذا كان سيدنا أبو بكر ﷺ يقرؤه إلى وقت الفجر وهو يَذْرِف الدموع، وإذا كان سيدنا عكرمة بن أبي جهل ﷺ يضعُ القرآن على وجهِهِ وعينيه ويُبدي احترامه وتبجيلَه للقرآن في أنينٍ وحنينٍ قائلًا: "كتاب ربي، كتابُ ربّي"... فإنه ليسَ من الصحيحِ أن يُحمَل كلُّ ذلك على أنه تعظيمٌ لمجرَّدِ الظَّرف، بل لا بدَّ من أن يُناطَ ذلك بما في كلمات القرآن من العمق، وما في معانيها من السعة والشمولِ، وباعتبار أنه "كلام الله" ﷻ.

إن الله "حكيم"؛ فكما أنه خلقَ الكون بالحكمةِ، ووضعَ في كلِّ شيءٍ آلافًا من الحِكَمِ، فلا بدَّ من أن كلَّ كلمةٍ من كلمات كتابه تنطوي على معانٍ عدّة وحِكَمٍ شتى، فهو يقول: ﴿حم ۞ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (سورة الْجَاثِيَة: ٤٥/١-٢)، يعني -والله أعلم- تَنَبَّهُوا! فإني سأحدِّثكم عن أمرٍ ذي أسرارٍ غامضة؛ إن هذا القرآن قد نزل من عند الله الذي هو العزيز الحكيم"، فمن الحقيق إذًا أن يتعمَّقَ الإنسان في كلام الله ويبحثَ عن الحِكَمِ المكنونةِ فيه دائمًا.

ففيما نحن فيه من الآية الكريمة يَرِد تعبيرُ "الصراط" في حين أن هناك في اللغة العربية كلماتٍ مرادِفةً لها مثل: السبيل، الطريق، النهج، وغيرها... فلِماذا اختيرت كلمةُ: "الصراط"؟ وكذلك الأمرُ في: "المستقيم"؛ حيث نلاحظُ أنها فُضِّلَتْ على سائرِ الكلماتِ المرادِفَةِ لها، فلا بدَّ لنا من أن نفهمَ السببَ وراءَ اختيارِ "الله الحكيم" لهذه الكلمات بالذات في كتابه

المشحون بـ"الحكمة"، حتى ندركَ المرادَ الإلهيّ.

فالقرآن الكريم حينما يُعَبِّرُ عن أمرٍ ما بأيَّةِ كلمةٍ، فتلك الكلمةُ لها معنى باعتبار سياقِها الذي وردت فيهِ، بالإضافة إلى معانيها الكثيرة الأخرى التي تنطوي هي عليها، فأحيانًا نُضطَرُّ إلى حملِها على معنًى خاصٍّ من معانيها، وأحيانًا أُخرى إلى تناولِها بكلِّ معانيها، فحينما نقول: "الصراط المستقيم" فعلينا أن نتبيَّن كيف نتعاملُ مع معاني كلمات هذا التركيب، فإذا فهِمْنا ذلكَ فإننا سنرى أن عبوديَّتَنا لله، وطلبَنا الهدايةَ منه، وعيشَنا على هيئةِ الجماعة، وغيرِ ذلك من النِّعَمِ...كلّ هذه الأمور تستندُ إلى آيات القرآن الحكيم.

د. الصِّرَاط الْمُسْتَقِيم

إننا نلاحظُ في تفسير "الصراط المستقيم" معاني كثيرة منها: الطريق الوسط، الطريق الحقّ، الإسلام، طريق الرسول ﷺ وأصحابِه، طريق الجنة، الجسر الممدود على متنِ جهنم...

ومنها: القرآن، فقد روى الترمذي بسَنَدِهِ عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه سمع رسولَ الله ﷺ ذَكَرَ القرآنَ وقال: "**هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**"(٦٣).

فبناءً على هذا يكون القارئ كأنه يقول: اللهم اهدني إلى كتابك، ووفقني إلى فهمِ مقاصِدِهِ، فأنتهج نهجَه.

ونستنتج من هذا أن "الصراط المستقيم" حبلٌ نورانيٌّ أتانا من الله العزيز الحكيم، أي إنه حبلٌ ممدودٌ إلى أيدينا من عالم الغيب؛ إذا تَمسَّكْنا به حظينا بالسعادة، وارتقينا إلى سماء الإنسانيّة، وحصلنا على الرشد الإنساني. أجل، القرآنُ هو الصراط المستقيم، به يتيسر للإنسان فهمُ

(٦٣) سنن الترمذي، فضائل القرآن، ١٤.

المقاصدِ الإلهية، والتحرُّكُ حسب مقتضاها، والفوزُ بدخول الجنة بلطف الله ﷻ.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد عن النَّوَّاس بن سَمْعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اُدْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإنسان أن يفتحَ شيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ.. فالصِّرَاطُ: اَلْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللهِ تَعَالَى، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ ﷻ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ** (أي الوجدان)"[٦٤].

إن الوجدان الإنسانيَّ يَرى ما في ماهيّة الأمور التي حرَّمها الله من القبح، فيَعافُها، ولا يَشعر بمدى ما يعانيه القلبُ الكافرُ في دواخِلِهِ من القلقِ والألَمِ إلا هذا الوجدان. نعم، إن الإنسان حينما يُطِلُّ برأسِهِ نحوَ الضلالِ والكفرِ إذا به يسمعُ صوتَ الأنين الذي يُطلِقه الوجدانُ، فعليكم أن تستمعوا -من جانبٍ- إلى نداء القرآن الكريم، وأن تُصغوا -من جانب آخر- إلى وجدانكم، وتحاولوا السيرَ تحت ضوءِ القرآن في هذا الصراط الذي ضربَ الله لكم به مثلًا، من دون أن تنحرفوا يمنةً أو يسرةً، ومن دون أن تُطِلُّوا برؤوسِكم وتخرجوها من الأبواب التي تنفتح على الحرام، ومن دون أن تزيحوا الأستار التي أَسدَلَها الله، ومن غير أن تحوموا حول الحِمى المحرّمة.

ويُفهَم من هذه الأحاديث الشريفة التي سردناها آنفًا أنّنا حينما نُطلِقُ

(٦٤) سنن الترمذي، الأمثال، ٤١؛ مسند الإمام أحمد، ٢٩/١٨١-١٨٢ (واللفظ للإمام أحمد).

مصطَلَحَ "الصراط المستقيم" فإن ما نقصدُهُ منه ليس إلا معنًى من معانيهِ.

وإنَّ مِـن معاني "الصراط المسـتقيم": الطريق المتَّـزِن المعتدل البعيد عن الإفراط والتفريط.

وإن بدا في الظاهر أن الصراط المسـتقيم يحتمل معاني مختلفة، لكن الحقيقـة أنهـا ليسـت مختلفةً متنافـرة، وغايةُ ما في الأمـر أن هناك إطلاقًا وتقييـدًا، أو تعميمًـا وتخصيصًـا بيـن المعاني، إذ إن "الصراط المسـتقيم" هو الطريق القويم، والإسـلامُ هو في حدِّ ذاته الطريقُ القويم، وهو مصونٌ عـن الإفراطِ والتفريطِ، لأنه عبـارة عن مجموع القوانين الإلهية، ومصدَرُهُ الأصلُ هو القرآن الكريم...

إن الصـراط المسـتقيم هو الجـادة الكبرى التي يسـتطيع كلُّ أحد أن يسـلكها.. ومـن جانب آخر هو معنى وجدانيٌّ؛ إنـه طريق علميٌّ وعمليٌّ، نظريٌّ وتطبيقيٌّ يؤدي بأفكارنا وميولنا إلى الخير الذي نحتاج إليه ويتطلَّبُهُ طَبْعُنا.

عندما نقول ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نكون قد طلبنا منه سبحانه معونةً مطلَقَةً، حيث إن المعاني التي تدورُ في خَلَدِ الإنسان مجرَّدَةٌ، وفي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْـتَقِيمَ﴾ يتحـوَّلُ المُجَـرَّدُ إلـى أمرٍ مشـخَّصٍ، ومن وراء هـذا التعبير المشـخَّص طلبٌ كالتالي: اللهـم وأوصِلْنا بأفكارِنا ومشـاعِرِنا إلى أفضلِ آمالِنـا وأكثرِهـا خيرًا، وبلِّغْنا إلى بغيتنا عِلمًا وعَمـلًا، ولا تُعثِّرنا في حياتنا الدنيا، وارزقنا الثباتَ والدوامَ على نهج الاستقامة الذي يبلّغنا إلى رضاك.

ومـن له أدنـى نصيب من البلاغة والأدب يتذوَّقُ ما بين هاتين الآيتين من التناغم والانسـجام، ويشـعرُ في روحِهِ بِسَـكِينَةٍ عميقةٍ، وفي ضوء هذه السكينة يدرِك الماهيةَ الحقيقية للدعاء والتضرّع.

والحقيقة أن أيَّ طريقٍ ينتهي إلى الله، إما إلى رضاه وإما إلى غضبه، فهناك طريقٌ يَشرَب سالكُه الخمرَ، وآخر يزني سالكُه، وطريقٌ آخر سالكُه يقتل الناس، وثمة طرقٌ أخرى يقوم سالكوها بالأعمال الصالحة، فهذه الطرق بعضُها يؤدي بسالكه إلى غضب الله وسخطِه، وبعضُها يؤدِّي إلى رضاه ﷻ، وهذا كلُّه من سُنَنِ الله.

في الكون سننٌ وقوانين وضعها الله، إلا أنها قد تُسند إلى مواضعها، أو كيفيةِ وضعِها، أو تسمى باسم الشيء أو الحادثة التي تتعلَّقُ بها، ومن الناس من ينسب هذه القونين إلى الذين اكتشفوها كأنهم واضعوها، والحال أن كلَّ الكائنات وكلَّ القوانين الجارية في الكون تشهدُ أن الواضعَ والموجِدَ الحقيقيَّ لكلِّ شيءٍ هو الله وحده ﷻ، ولا يمكن بتاتًا أن يُسمَّى مَن أخبَر بوجود هذه القوانين "مُوجِدًا"؛ فهذا خطأٌ فادحٌ، والحقُّ أنه لا يسمَّى "مكتَشِفًا" أيضًا؛ لأنَّ الذي وفقه إلى هذا الاكتشاف هو الله، ولكنْ إن كان لا بدَّ أن يُسمَّى بشيءٍ، فأخفُّ الأخطاء وأهونها وأقربُها إلى الصواب هو أن يسمَّى "مُكتَشِفًا"؛ لأن الذي وَضَع الكون على هيئةِ مَصنعٍ، وسيَّره وأعملَهُ في انتظامٍ دقيقٍ كالساعةِ، والذي وضعَ هذا الطريقَ الذي يمتدُّ إلى الموت وإلى القيامة هو الله ﷻ.

فلماذا يموت الإنسان الذي قُطع رأسه؟ لأن هذه سنة الله وقانونُهُ، والقانونُ مبدؤُهُ من الله، ونهايتُهُ إلى الله، فالصلاةُ والصدقةُ وأعمالُ البِرِّ كلُّها تؤدِّي إلى رضا الله، والسيئاتُ تؤدّي إلى سخطِ الله، وهذه سنَّةُ الله، فنحن نشاهد في الدنيا الخيرَ والشر، والحَسَن والقبيح، والأمور التي تؤدِّي إلى سعادة الإنسان وفرحِه متداخلةٌ متشابكةٌ مع ما يتسبَّبُ في اشمئزازه وحُزْنِهِ، فهي متشابكةٌ بعضُها إلى جانب بعض، ونلاحظ أن وراءَ هذه الأمور المتداخلة تَصَرُّفَ الله ﷻ.

أجل، إن القوانين وُضعت من قِبَلِ الله تعالى، وبذلك نصلُ إلى النتيجة التاليـة: إن بجانـبِ كلِّ خيـرٍ شـرًّا، وبجانب كلِّ شـرٍّ خيرًا، وفـي كثيرٍ من الأحيانِ نرى أن ما نسـمّيهِ خيرًا يسـتندُ إلى شـيءٍ نسمّيه شـرًّا، وما نسمّيه شـرًّا قد نجده مسـتندًا إلى خيـر، والذي وَضـع هذه القوانيـن التي تَداخَلَ فيها الخيرُ والشرُّ هو الله.

واللهُ تعالى يقول: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (سورة الصّافّات: ٢٣/٣٧)، في الآية دلالة واضحة على أن "الهداية" قد تكون إلى شرٍّ، لذا نطلبُ من الله أن يهدينـا إلـى الخيـر المطلَقِ، ونلتمسُ منـه أن يوصلنا إلى مقصودنا، وإلا فـإذا لـم يكـن في نهاية الطريـق خيرٌ، ولم تكن نتيجـة هذا الخير هي رضـا الله تعالـى، فذلك نقمةٌ لا نعمة، ومن يسـلك ذلـك الطريق يتعرض لمصائبَ لا حصرَ لها.

هـ. روح الإنسانِ والصراطُ المستقيم

إن البنيـةَ المادِّيَّةَ للإنسـان تتكـوَّن من عناصر مختلفـة، فمِن بين هذه العناصرِ ما هو محبوبٌ لدى طبيعةِ الإنسان وما لا تألَفُهُ طبيعة الإنسان بل تعافُهُ، ولكن لكل واحدةٍ منها حكمةٌ وغاية معيَّنة، وحدوثُ أيِّ نقصٍ منها يؤدِّي إلى ضعفٍ في بنية الإنسان، ولكن كما قلنا آنفًا قد تكون هذه المادَّةُ التي لها أهمّيّة بهذا المستوى مقززة ومُعافة بالنسبة للطبيعة الإنسانيّة.

فكمـا أن الجانـبَ المـادِّيَّ للإنسـان بهـذا الشـكل؛ كذلـك الجانبُ المعنوي والروحيّ؛ فمِن بين الأحاسـيس والمشاعر التي تشَكِّل جانبًا من الإنسانِ أنواعٌ ممقوتَةٌ ظاهرًا ومثيرةٌ للغَثَيَان؛ فالشهوةُ والغضبُ وغيرُها قد تبدو شـرًّا وتُقْلِقُ البالَ، والحالُ أنها عبارةٌ عن أنواع من الشرور تخلْخَلَتْ بيـن الجوانـب الخيّـرة، وهي أدواتٌ ضروريّةٌ للمسـير فـي الطريق ضمنَ دائرة السُّنَنِ الكونيّة التي وضَعَهَا الله تعالى؛ حيث إن المسير سيتحقَّقُ بهذه

الأمورِ؛ فإن كان السيرُ متوجّهًا إلى الخير فسيسيرُ السالكُ بها نحو رضا الله، وإن كان متوجّهًا إلى الشرِّ فنحوَ غضبِهِ ﷻ.

واللهُ مَنحَ الإنسانَ حِسَّ الشهوة؛ به يميل الرجل إلى المرأة والمرأةُ إلى الرجل، وكذلك حسَّ التملُّكِ والمحبة والغضبِ، ومنحه أيضًا العقلَ الذي إذا أُسيءَ استخدامُهُ أدَّى إلى انحرافِ الملايين من الناس.

فالله هو الذي مَنح الإنسانَ كلَّ هذه الأمور، والإنسانُ يستطيعُ أن يَستخدمَ كلًّا منها في الخير والشرّ، وقد أُعطيت الحيواناتُ أيضًا قسمًا من هذه الأحاسيس، إلا أنها مختلفة عن التي يملِكُها الإنسان في الكيفيّة اختلافًا لا يُستهان به؛ لأن هذه الأحاسيس في الإنسان "إنسانيةٌ" وفي الحيوانات "حيوانيّة"، ولم يوضع لما لدى الإنسان مِن حدٍّ، في حين أنها في الحيوانات قد حُدَّتْ بحدودٍ معيَّنَةٍ، ولذلك فمشاعر الإنسان قابلةٌ للإفراط والتفريط.

لو لم يُوْدَع في الإنسان "الشهوة" مثلًا لما رغبَ في الأكلِ والشربِ والنومِ، ولما فكَّرَ في الزواج، حيث لا يشعر بميلٍ نحو الجنس الآخر، ولما حصلَ التناسُلُ والتوالُد، وفي نهاية الأمر لَانْقَرَضَ النوعُ الإنسانيّ.

وهناك إفراط في القوة الشهوية؛ وفي هذه الحالة يكون الإنسان متهوّرًا عدوانيًّا ينتهكُ الحرمات ولا يقفُ عند حدٍّ، وكما ورد في الحديث الشريف الذي أوردناه آنفًا: يفتحُ النوافذَ المطلَّةَ على الحرام، ويهتك الأستار، ويتخطّى الحدود، ويدخل في دائرةِ الحرام، وينتهكُ حدودَ الله ويدوسُ عليها بِقَدَميهِ.

فـ"الصراط المستقيم" هو الطريق المنزه عن كلِّ هذه الأنواع من الإفراط والتفريط، والذين يجعلون هذا النظام الإلهيَّ دستورًا لهم هم الموصوفون بأنهم أصحاب الصراط المستقيم.

فمَن هؤلاء؟

إن هـؤلاء هـم عباد الله الذين يكرهـونَ الحرامَ ويجتنبونَهُ، ويشـتهونَ الحلالَ ويأتونَهُ، وقد يتركون الحلالَ إذا وقـعَ في أنفسِهم الشكُّ فيه خوفًا من الوقوعِ في الحرام.

فهؤلاء كما أنهم يسـيرون في الطريق الوسـطِ في الشهويّات، فكذلك ينتهجونه في سائر المشاعر والأحاسيس.

فالـذي لا يثـورُ غضبُـهُ بل يظلُّ سـاكتًا خامـلًا أمام انتهـاك الأعراضِ والمقدَّساتِ، فهو يعيش حالةً من التفريطِ في مشاعر الغضبِ، في حين أن الـذي تثورُ ثائرتُهُ لكلِّ صغيرةٍ وكبيـرةٍ، ويُثيرُ زوبعةً كبيرةً تجاهَ كلِّ حادثةٍ؛ فهو على "الإفراط"، أما أصحاب الصراط المسـتقيم فيَغضبون في الأمور التي تستحقُّ الغضب، ويتحلَّون بالصبر والأناة فيما دونه.

نعم، إنّ حسّ الغضب لو لم يُودَع في الإنسان، لوقـع شرٌّ وفساد كبير، فهـذا الإحسـاسُ قد يبدو ظاهره فيه الشـرُّ، إلا أن باطنـه ينطوي على خيرٍ كثير.

وخيرُ مثالٍ لهذا هو رسول الله ﷺ:

روى البخـاري بسـنده عن أنس بـن مالك ﷺ، قَال: كُنْتُ أَمْشِـي مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْـهِ بُـرْدٌ نَجْرَانِـيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِـيَةِ، فَأَدْرَكَـهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَ بِرِدَائِـهِ جَبْـذَةً شَـدِيدَةً، قَالَ أَنَسٌ: فَنَظَـرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِـقِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِـيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِـدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ(٦٥).

(٦٥) صحيح البخاري، الأدب، ٧١؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٢٨.

في حين أننا نراه ﷺ يزأرُ مثلَ الأُسود إذا انتُهِكَ حقٌّ من حقوق الله، فيتَّخذ من الأمر موقفًا صارمًا، ولا ينصاعُ لأيِّ محاولةِ إيقافٍ أو شفاعةٍ إلى أن يُحْكَمَ بالحقِّ.

وتُفْصِحُ سيدتُنا عائشة ﵂ عن هذه الحقيقة باختصار: "مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلهِ ﷻ"(٦٦).

ولذلك فإن سلطان الرسل ﷺ هو الذي يقول بكلِّ وجدانه وكيانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويقول بكل وجدانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. نعم، إن الرسول ﷺ قد صارَ بِكُلِّ ماهيَّتِهِ العُلويّةِ مَظهرًا ومَعكِسًا لهذا الأمر.

أجل، إن أصحاب الصراط المستقيم لا يَثورون غضبًا تجاهَ الأمور الصغيرة التافِهَةِ، ولكنهم لا يظلّون غير مبالين أمام الهجمات التي تستهدف دينَهم وأوطانَهم ومقدَّساتهم، فإذا اختلَّ هذا التوازُنُ وانقلبَ رأسًا على عَقِبٍ، فإنَّ هذا يعني أن أصحابَ الصِّراط المستقيم لم يعُد لهم وجودٌ على الساحة، وليس هناك جماعة منتظِمة تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأما من يَظهَرون بمَظهر "الجماعة" فليسوا إلا حشودًا من الناس، وهذا يعني أن تلك الحشود لم تؤمن بعدُ بـ"مالك يوم الدين" الذي يجازي يومئذٍ كلًّا بعمله، وليس لديها معرفة بـ"الرحمن الرحيم" الذي جعلَ وجهَ الأرضِ بِنعَمِهِ مائدةً لِعِبَادِهِ، وبالتالي فليس لديها علم عن "ربِّ العالمين" الذي يربّي كلَّ شيءٍ.

والنتيجةُ هي: أن هؤلاء لا يُعتَبرون مؤمنين بأن الله مهيمنٌ على كلِّ شيء. أجل، إننا نستطيعُ أن نتابعَ كلَّ هذه الأمورِ في الفاتحة واحدةً تلوَ الأخرى، وبشكل تسلسليّ، وكأنها كلمةٌ واحدةٌ.

(٦٦) صحيح مسلم، الفضائل، ٧٩.

ومـن القـوَى التي أودِعت في الإنسـان "القوَّةُ العقليّـة"، فالإفراط في هـذه القـوّة يؤدّي إلى الجَدَلِ، وبذلك تُوجَّه حشـود النـاس وتُجرَف نحو السُّـبُلِ الخاطئَةِ، ويُـزَجُّ بالإنسانية في الضلال، وتتدفّقُ سيولٌ من الكَذِبِ، فتنجرِفُ الحشـودُ وراءَ هؤلاء من دون شـعورٍ وإحسـاسٍ وكأنها أجسـام جامـدة هامـدة، فالمنطِـقُ الذي لـم يخضَـعْ للتعديـلِ منطقٌ يُسـتَخدَم في الخداع، وأما صاحب المنطق السـليم المنصف فيقول: "ضَعُوا قولي على المحـكّ؛ فإن ظهر أنه خاطئ أو سـيّئ فاضربوا به عـرضَ الحائط"، يقول ذلـك ويبيـن للآخرين كيف يُستخدم العقـلُ والمنطِقُ، ويوضـح الطريق المستقيم لهما.

وهنـاك بالمقابـل تفريـط في القوة العقليـة، ألا وهو "البَلَـه"، أي عدمُ الفهمِ حتى في أبسطِ المسائل وقلَّةُ التعقُّل والخَرَفُ.

أمـا الاعتـدالُ في هذه القوة فهو "الحكمة"، فهي وضـعُ كلِّ شـيءٍ في موضِعِهِ، فـ"الحكيم" من يستخدمُ عقلَهُ ومنطقَهُ في مكانِهِمَا المناسبِ لهما، إنه لا يَخدع ولا يَغش أحدًا، ولا يُظهِرُ الخيرَ بمظهرِ الشرّ، ولا الشرَّ بمظهرِ الخيرِ، ويَظهر أمام الآخرين كما هو، وبِفِطْرَتِهِ التي هو عليها.

هـذا هو طريق المؤمن، ونحن إذ نقول فـي اليوم الواحد أربعين مرة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإننا نقصد بذلك هذا الطريق الوسط.

و. الصراطُ المستقيمُ والنظرةُ الصحيحةُ إلى الطبيعة

مـن القـوَى التي أودِعت في الإنسـان "القوة الطبيعية". نعم، الإنسـانُ ثمرةٌ لشـجرة الخلقة التي نسـميها: "الطبيعة"، فهو قد نشأ من الطبيعة التي هي مَعرض ومَشهر للصنائع الإلهية.

قد يكون الإنسانُ عابدًا للطبيعة ومؤَلِّهًا لها، ويبحث عن كل شيء فيها، ويربط كلَّ شيءٍ بها لأنها مَنْشَؤه، ويشاهد الكائنات ويقوّمها بحسب لون النظارة التي يرتديها، ففكرُ المادّية الجدليّة والتاريخية والفكرُ الطبيعيُّ قد نشآ وترعرعا في أحضان هذه الأسس الخادعة، والحقيقةُ أن هذا نوعٌ من أنواعِ الانحراف، صحيح أن الإنسان من حيث إنه انبثق بجانبيه المادي والمعنوي عن هذا العالم، فمن الطبيعي أن يكون متعلّقًا به، ولكن لا بدّ أن يكون على دراية بأن الإفراط في هذا سيؤدّي إلى أضرار؛ فكلُّ التيارات، بدءًا من أقدم الأنظمة الكومونالية، ومنها إلى اليهودية المؤلِّهة للطبيعة، ومنها إلى المادية التاريخية، ومنها إلى الوجودية، وحتى من الطبيعيين الجدد، إلى تأليهِ منتسبي الحزب الأخضر للطبيعة، كل هؤلاء قد انحرفوا نحو الإفراط في أمر الطبيعة وخَلخَلوا الانسجام والموازينَ.

نعم، إن هؤلاء قد قالوا: "دَعُونَا نعُدْ إلى الطبيعة، ونعِشْ كما يحلو لنا، ولْنعتصِمْ بالفطرة، ونأكلْ أكلًا بسيطًا، ونشربْ شربًا بسيطًا، ونَدَع القوانين السماوية والبشرية، ونتحرر من كل القيود والشروط..."، فانحرفوا بمثل هذه الأقوال والأفكار إلى "طبيعية" مفرطة، وقلبوا العلاقة والتوازن بين الإنسان والطبيعة رأسًا على عقب.

وبالمقابل هناك تيّارٌ آخر يترُكُ أَتْباعُه الطبيعةَ بالمرة، بمعنى أنهم "ضدّ الطبيعة" تمامًا. نعم، إن الذين يُفكرون على هذا المنوال، سواء كانوا شكوكيّين، أو سوفسطائيّين، أو غموضيّين، هم يكونون منغلقين تجاه الطبيعة والكون، ويتناسون فطرتهم ومَبدَأهم ومَنشأهم، ويعيشون موَلِّين وجوههم عن الوجود والأشياء وجميعِ الشؤون، فهؤلاء مِن حيث إنهم يكونون غير مبالين لقوانين الفطرة التي نشؤوا فيها، قد يأتي يوم يصطدمون فيه بدواليب الفطرة، وينمحون عن الوجود، والحال أن الصانع الأعظم

الـذي نظَّـم كتاب الطبيعـة على هيئةِ مصنع وسـاعة وحَرَّكَهَـا، قد وضـع مناسـبةً بين بني الإنسـان والكونِ، ولذلك نقول: إن المنطويَ على نفسِـهِ، والهاربَ عن الطبيعة والكونِ يكون قد فرَّط من هذه الناحية.

والواقـع أنـه في كثيـرٍ من الأحيان يُنتـج الإفراطُ التفريـطَ، كما ينتج التفريـطُ الإفـراطَ، فقد أنتج تـركُ الطبيعة وهجرُها تمامًـا، التعلُّقَ بها لدى آخريـن بـكلِّ ما أوتوا من قوّة، وبهـذا الاعتبار نقـول: إن كلًا من الإفراط والتفريط في تعلق الإنسان بالطبيعة مذمومٌ، وأما الصراطُ المستقيم الوسطُ في هذا الباب -وفي كلِّ مسألةٍ- فهو ما سار عليه الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ.

لقد فهِمَ سيدُنا عمر ﷺ موضوعَ الطبيعة فهمًا جيّدًا، فكان يَعرف كيف تُـدار الدولةُ؛ كان عسـكريًّا ومجاهـدًا، وكان في الوقت نفسِـهِ ربانيًّا عابدًا زاهـدًا، فهِـمَ الدنيا فهمًا صحيحًـا، وكان مُطَّلِعًا على طبيعة الأشـياء واقفًا عليها، ويُجري معها علاقةً متوازنة، كانَ ذا علاقةٍ وطيدةٍ مـع الكون؛ يأكلُ ويشـربُ بِقـدرِ حاجتِهِ، ويأخذُ حظَّه من الاسـتراحة، يتزوَّج ويبني أسـرة، ولكنه مـع ذلك كلِّه لا يجعلُ حياتَهُ البدنيّة مهمتَه الأولى وغايتَه الأساسيةَ، فحينما ذهب لتفقد أحوال أهل ولاية الشـام ركبَ راحلةً مسـتأجَرة، وكان السرجُ الذي على ظهر الراحلة من الخشونة بحيث إنه قد أثَّرَ في سرواله، ولـم يكن لدى عمر العظيم خيط يخيطُ به سرواله، فذهب إلى سوق شعبي هناك فاشترى الخيط وتنحَّى جانبًا فخاطَ سروالَهُ بنفسِهِ، ومن المحتمل أنه لم يكن له سروال آخر ليلبسه، مـع أنه كان على رأسِ دولةٍ تزيد مساحتُها عن مساحةِ تركيا بعشرين ضِعْفًا.

نعم، إنه كان في أحضان الطبيعة ولكنه لم يكن يتوجَّه نحوها بشـكل مبالَـغٍ فيه ومتجاوِزٍ للحدِّ، ولـم يكن في الوقت نفسِـهِ في زهدٍ غير متوازن

بحيث يترك الطبيعة ويعصي الله ويناطح قوانينه وسننَه، فهؤلاء هم أرباب الصراط المستقيم.

إن الله ﷻ خلقَ الإنسان ورباه بصفته "التربية" وساقَه نحو الكمال، وتجلَّى بصفة "الرحمة" فرقَّى الإنسانَ برحمانيَّتِه ورحيميَّته إلى مستوى الكمالات الإنسانيّة، فنحن نحسُّ ونشعر كيف أن الله ﷻ غمرنا بالرحمة منذ أن كنّا أجنّة في بطون أمهاتنا إلى أن نكبُر ونترعرع، ونلمسُ كيف أنه يقدم لنا على مائدة الأرض التي كأنها مأدبةُ ضيافةٍ أنواعًا وألوانًا من النِّعَمِ والآلاء، وكيف أنه بما أنعم علينا من الفواكه التي تُطِلُّ برأسِها من فوق الأشجار يَلفِت أنظارَنا إلى نِعَمِ الجنة، فنستشعر بكلّ هذا أننا سنحاسَب مِن قِبل "رب العالمين"، فنلجأ إلى "مالك يوم الدين" ونطلبُ منه الهداية.

ز. التنوُّع في طلب الهداية

إن طلبَ الهداية لا بدَّ أن يكون جامعًا دائمًا لكلِّ أنواعِ الهداية.

ما الذي يعنيه طلبُ الهداية بالنسبة لجماعةٍ اصطفَّت خلفَ الإمام، وتوجهتْ نحو الكعبة، وجددتْ بيعتَها متصوِّرةً بخيالها كأنها واقفة خلف النبي ﷺ؟ نعم، ما المقصود بطلب الهداية بالنسبة لجماعة اتَّبعت النبيَّ ﷺ بكل مشاعرها وكيانها، أَلسنا على الهداية؟ ألم نصطفَّ خلف الرسول ﷺ وأَلَمْ نولِّ وجوَهنا شطرَ المسجد الحرام؟ ألم نعلن على الملإ أننا نؤمن برب العالمين إذ قلنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؟!

نعم، قد فَعَلْنا كل ذلك، ولكن لماذا نطلبُ الهداية مع كلِّ ذلك ونقولُ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وكنْ رفيقنا في الدرب، واذهبْ بنا إلى آخر المراحل؟

فيُفهم من هذا أن كلمةَ الهداية لها معنى آخَرُ غير المعنى الظاهري، أو أن للهداية أنواعًا ومستويات؛ أوّلها التخلُّص من الكفرِ إلى الإيمانِ، والضالُّون حينما يقولون: "اهدِنا" فإنهم يطلُبون التخلُّص من ضلالِهم، وأما الذين آمنوا إيمانًا تقليديًّا فيقصدون بذلك: "اللهم خلِّصْنا من التقليدِ، واسقِنا شرابَ التحقيق الذي هو ماءُ الحياة، وأَطْلِعنا على حقائقِ الأشياء"، فهؤلاء يطلبُون كمالَ الهداية التي نالوها، وأما الكاملون، فإنهم إذ يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فإنهم يعنون بذلك: "اللهم أَدِمْ علينا هدايتك، وارزقْنا القيامَ بحقّ الأمانة إلى آخرِ لحظةٍ، وإلى أن تبلُغَ الروحُ الحلقومَ، ووفِّقْنا لأداءِ الأمانةِ".

وقد تختَلِجُ في صدورنا أفكارٌ كفريّة فتحيط بأرواحنا، وقد تتفلَّتُ من ألسنتِنا فتجرح قلوبنا وأفئدتنا، ومَن يدري كم مرة في اليوم الواحد ينحو خيالُنا نحو الفسق فيَجْرفُنا من ورائه؟ ومن يدري كم مِن مرّة تتعلَّق وتتبعثَرُ مشاعرنا العُلْوية السامية بالكلاليب التي يعلّقها الخيال، فننساق بها هادرين؟ وإذ ننجرفُ وننساقُ؛ نُطفئُ مشاعرَنا العُلْوية ومَلكاتِنا وقابلياتِنا، فالإنسان الذي يكون في حالةٍ كهذه، حينما يردّدُ في اليوم الواحد أربعين مرة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، آخِذًا كلَّ هذه الأحوال بعين الاعتبار كأنه يقول: "يا ربِّ! أحمدك لأني على الهداية، وهذا يتطلّب مني إبداء مشاعرِ الشكر والثناء، ولدوام هذه الهداية لا بدَّ لي من النقاء من شتى أنواع الخلل والأدرانِ، وينبغي عليَّ الابتعاد عنها، والحال أنني من بني الإنسان المفطورِ على النسيان، وأكبو وأتعثَّرُ على الدوام، فكذلك أطلبُ منك الهداية في كلِّ دقيقةٍ حتى لا تُغرِقني أخطائي تلك وحتى لا تؤدّيني ذنوبي إلى الكفر"، يقول ذلك ليُزيل ما عَلق بحياته وكيانِه المعنوي وعالمِه الروحيّ والقلبيّ من السخام والصدإِ والغبارِ والترابِ.

فلذلك فإننا نحن المؤمنين ملزَمون ومكلَّفون بأن نقول على الدوام: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

نعم، "الصراط المستقيم" هو الطريق المؤدّي إلى الحقِّ، وقد تكون لطريق الخير مُنْعَرَجَاتٌ ومحطَّات بها أنواع من الشرور هي بالمرصاد للإنسان، وخَلْقُ هذه الشرور أيضًا ينطوي على جوانب من الخير؛ لا شيء يخرج من إطار قوانين الله خيرًا كان أو شرًا، وأحد جانبي الصراط المستقيم هو معرفة الشرِّ والحذر والاجتناب منه، والجانب الآخر هو معرفة الخير والتواصي به وتهيئةُ المناخِ لإحياء الخير.

آيةُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

الإنعام: هو إيصال الإحسان إلى الغير، وفي تعديته بـ"على" إشارةٌ إلى أنـه ينـزلُ من عَـلٍ، وفي هذه الآية أنه ينزل مِن لـدُن مَن هو حاكمٌ وغالبٌ علـى كلِّ شـيءٍ، وأن علينا نحن العباد الشـكر على هـذا الإنعام. نعم، إنه بحرف الجر هذا (على) حصل التنبيه إلى ما نحن مكلفون به ومسـؤولون عنه، مـع بيان عظمة الله وربوبيَّتِهِ ﷻ.

أ. الإنعامُ، ونعمةُ الاستفادةِ من النعمة

"الإنعـام" يتضمَّنُ أيضًا اسـتفادة الإنسـان وتلذُّذَه بالنعمـة، إن الله ﷻ يعطينـا النعمـة ونحن بدورنا نتنعم بتلك النعمة ونتمتَّـع بها، فها هي ماهية "الإنعام"، أي الإنعامُ ذلكَ الفعلُ الذي فاعلُه هو اللهُ مندمجٌ فيه تمتُّـعُ الذين أُنعِـمَ عليهم بهذه النعمـةِ، والتلذُّذ إنما تحصَّلَ بالنعمةِ ذاتِها، ولذلك نعتَبِرُ الاسـتفادة مـن النعمة نعمةً، فكـم من صاحبِ نعمةٍ لا يسـتفيدُ من النعمة التـي يملكهـا؛ فترى الرجلَ يملك الخبزَ والزيتَ والملحَ والسـكَّرَ، ولكن ذائقَتَـهُ مفقـودةٌ، وترى الشـخص يملك المال والثروة ولكـن في حنجرتِهِ وَرَمًا خبيثًا، فلا يستطيـع أن يأكلَ ويستفيد من الطعام إلا ما كان مائعًا مثل العصيدة ونحوها، وكم من أناسٍ وُلدوا وترعرعوا في بلدٍ إسلاميٍّ ولكنهم فـي الحقيقة عُمْيٌ غافلون عـن الحقائق التي يرونها أمامهم منذ أن وُلِدُوا، وأمرُهم كما ورد في المَثَلِ: "كم من سمكٍ يعيش في البحر لكنه لا يدري عن البحر شيئًا".

إن أعظمَ النِّعَمِ هو الإسلام؛ فهو من العظمة بحيث إنه نعمةٌ ليس فوقها نعمة، ولكن يا لها من فجاعة أن يكون الإسلامُ يَعرِض نفسَه كلَّ يومٍ مراتٍ عديدة بكلِّ عَظَمَتِهِ وشمولِهِ، وبالمقابل ترى هناك مَن تربَّى في ظلِّ المآذن وتحت قبب المساجد ولكنه لا يستفيد من هذه النعمة الكبرى؛ فتراهم يسمعون دويَّ الصرخات التي تهتف بـ"الله"، ولكنهم يا للأسف لا يعيرون لها سمعًا، وكم من "أبي طالب" أشَعَّتْ بمقرُبة منه الشعلةُ التي لا تخبو والتي أنارها سلطانُ الأزل والأبد، لكنك تراه لم يستفدْ من هذه الشعلة ولم يقتبس منها ولو لمعةً، مع أنه احتضنه أربعين عامًا، ولذلك نقول: إن وجودَ النعمة ليس هو كلّ الأمر؛ فالاستفادة من النعمة بجانب النعمة ذاتِها لا تقلُّ عنها من حيث الأهمية والخطورة.

إن الأمور التي تَجري في الكون متداخلةٌ ومعقَّدَةٌ بحيثُ إن الإنعامَ إذا لم يُسنَد إلى الله ﷻ فلن يمكن فهمُ أيِّ قضيّة، فلذلك نُسنِد فعلَ الإنعامِ إلى الله تعالى ونقولُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فالأمر لله لا لأصحاب السلطان والملوك، إنما هو لله صاحب الملك والملكوت الذي بيده مقاليدُ كلِّ شيءٍ، والذي ليس الزمان والمكان بالنسبة لعرشِهِ العظيم إلا بمنزلةِ حلقةٍ صغيرةٍ أُلقيت في فلاة، فنحن إذ نقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ نستشعر هذا بكل أحاسيسنا ومشاعرنا، ونحاول أن نُسمِع ذلك أرواحَنا.

وبما أننا نحتاج إلى نِعَمٍ لا متناهية أعطانا اللهُ ﷻ نعمًا لا متناهية: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (سورة إبْرَاهِيمَ: ١٤/٣٤)، فنحن لن نستطيعَ جَلْبَ هذه النعم من شتى جوانب الكون لا باستحقاقنا ولا بقُدُراتِنا؛ فكلُّ ذلك إنما يتمُّ بِلُطْفِ الله ﷻ بنا، وكما أن إتيان النِّعَمِ لطفٌ منه تعالى فكذا تحقيق استفادتِنا من تلك النعم لطفٌ منه ﷻ.

ب. أنواع النِّعَم

يمكن تقسيم النعم التي حبانا الله بها إلى قسمين: دنيويّة وأخرويّة، كما يمكن تقسيمها من ناحيةٍ أخرى إلى وَهْبيَّة وكَسْبيَّة، ومن ناحية أخرى إلى مادِّيَّة ومعنويَّة.

فالله ﷻ مَنَحَنا الحياةَ باعتبارها نعمةً معنويَّة؛ حيث إننا، على خلاف الكائنات الحيّة الأخرى التي لا تستطيع أن تُجري المناسبة إلا مع محيطها المكاني، متحرّرُون من ذلك، ولذلك نستطيعُ أن نعقد المناسبةَ مع كلِّ الأمكنة وندخلَ في علاقةٍ مع وجه الأرض ذي الألوان المتعدِّدَةِ، فهذه ثمرةٌ خاصّةٌ نفخها الله فينا، وأثرٌ من آثارِهِ، ونفحةٌ من نفحاتِهِ.

ومن بين النعم المعنويّة التي حبانا الله بها: العقلُ والشعور والإدراك، بالإضافة إلى نعمةٍ نستطيعُ أن نستشعرَ بها كلَّ ما ذكرنا من النعم، ألا وهو "الوجدان" الذي هو أصلُنا وجوهرُنا.

وأما النِّعَمُ المادِّيَّةُ، فإن الله ﷻ قد أعطى كلَّ واحد منَّا -مثلًا- عينين وأذنين وأنفًا وفمًا ونحو ذلك من الأعضاء، فبكلِّ هذه الأعضاءِ نستفيدُ من النِّعَمِ الظاهرة التي يُنعِمُ الله بها علينا، فنستفيدُ بأفواهِنا من النعم التي يستفاد منها بالفم، ونستفيد بأعيُنِنَا من النِّعَمِ التي يُستفاد منها بالعين، وهكذا... وكذلك فقد أسَّسَ الله ﷻ بفضلِهِ تناسبًا بين الأصوات التي تَمُوج في الكون وبين آذاننا، فلا تؤذِي الأصواتُ بِصَخَبِها الشديد إلى خرقٍ في أغشيةِ آذانِنا ولا تضربُها.

وبعض هذه النعم وَهْبيَّةٌ قد أعطاناها اللهُ ﷻ؛ فليس لنا أيُّ دخلٍ وأيُّ دورٍ في تحصيلِها، فكلُّ الأعضاءِ التي تتشَكَّلُ عنها أبدانُنا، والملكاتُ الروحيّة التي مَنَحَنا اللهُ إيّاها وهبيَّةٌ، وليس للإنسان فيها إلا أن يكون سببًا في تطوُّرِ هذه النعم أو ازدياد بعضها، ومهمَّتُه في هذا المجال ليس إلا الدعاء والشُّكر.

ومن النعم التي أنعم الله علينا مغفرةُ الله ﷻ لأخطائنا التي نرتكبها من أمثال إفراطِنا وتفريطِنا، وتقصيرِنا في عبوديَّتِنا، وتجاوُزِنا للحدِّ، وإساءتنا لاستخدام قُدُراتنا، فمغفرة الله لنا عن كلِّ ذلك من باب النعم الأخرويّة، وكذلك تهيئةُ الله قلوبَنا لقبول الإيمانِ، وكونُ الجنَّة مُعَدَّةً لنا، ووجودُ شوقٍ عارمٍ في جوانحنا تجاه الجنة؛ كل ذلك من النعم الأخروية.

إنك -أيها الإنسان!- كما تُحِبُّ الزهرةَ والربيع وتشتاق إليهما تشتاق إلى الجنة ومشاهدةِ جمالِ الله -ذلك الجمال الذي ليست الجنةُ إلا جلوةً واحدةً من جَلَواته-، إن هذا الشوقَ نحوَ الخلودِ والبقاءِ لا يمكن أن يكون نابعًا منكَ أنتَ الفاني؛ فهذا الشوق لا بدَّ إلا وأنه قد أتى من باقٍ لا فناءَ لِذاتِهِ وصفاتِه وهو الله ﷻ، وهذا يعني أن ما في قلبك من الشوقِ العارِمِ نحو الجنّة، وانعكاسَ قولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (سورة يُونُس: ٢٥/١٠) على روحك، وإحساسك بصداه في فؤادِكَ، وسيرَك في الطريق نحو دارِ السلامِ بأملٍ ورجاءٍ، ووصولَكَ إلى هذا الهدف بأمان؛ كل ذلك من هدايا الله لَكَ وألطافِهِ، وليس لك في أيٍّ من ذلك دَخْلٌ.

والنعم الأخروية أيضًا منها ما هو مادّيٌّ وما هو معنويٌّ؛ فبعضُ هذه النعم تكون على هيئة المعرفة الإلهيّة بحيث إننا نحسّ بلذّتِها في وجداننا ونتذوَّقها في ضمائرنا؛ في حين أن البعضَ الآخر منها قد أُعِدَّت بحيثُ تُلَبّي رغباتِنا الجسمانيّة.

فنحن إذ نقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فإننا نقصد بذلك: اللهم اهدِنا طريقَ تلك الزمرةِ الصالحة التي حَظِيَتْ برضاك وأحْرَزَتْ كلَّ هذهِ النِّعَم والألطافَ الدنيويّة والأخرويّة؛ والمادّيّة والمعنويّة، والوهبيّة والكسبيّة.

ونحن نحظى على الدوام بآلاف من نعم الله التي تنهَمِرُ علينا، وكثيرٌ من هذه النعم ذات قيمة كبيرةٍ بالنسبة لنا.

إن حقَّ الحياة الذي مُنحَ لنا، والوعيَ الفرديَّ والاجتماعي، وكذلك المجتمع الذي يتشكَّلُ بوازعٍ من هذا الوعي، وصلاحَ هذا المجتمع؛ كلّ ذلك من النعم العظيمة التي نعجزُ عن أداء شكرِها، ومن جانب آخر، بالإضافة إلى النعم التي لن نحصيها والتي تتحلَّى بها حياتُنا، قد فُتح لنا المجال لأن نُزيّن حياتَنا بالعِلم والعمل الصالح، كما أن بانتظارِنا في نهاية المطاف التشرُّفَ بالجنة والجمال السرمديّ، وغيرها من النعم التي تَبثُّ فينا مشاعرَ التقدير والانبهار، وبالأحرى فإن الله قد مَنَحَنا بِلُطْفِهِ وكَرَمِهِ "حُريةَ الإرادة" التي نَصِلُ بواسطتها إلى هذه السعادة، فهذه نعمة تعجز عن وصفها الكلمات.

نعم، إن الحريَّةَ نعمةٌ عظيمةٌ، وأبهى أشكال هذه النعمة إنما هو العبوديّة لله؛ فنحن إذا سلَّمْنا أنفسنا للحقِّ ﷻ فحينذاك نُحْرِزُ الحريّة الحقيقيّة، وما أحسنَ ما يعبّرُ مولانا جلال الدين الرومي عن هذه الحقيقة حيث يقول:

كلُّ رقيقٍ يسعدُ حينما يُعتَق

وأنا وجدتُ سعادتي في الرِّقِّ

إن الله ﷻ قد منحَنا الحرّيَّةَ حينما رَبَطَنا بِذاتِهِ، فالحريَّةُ عبارةٌ عن أن يكونَ الإنسانُ مالكًا لحقوقه، والإنسانُ الذي لا يملك ما يدبّرُ بهِ شؤونه أسيرٌ ورقيقٌ، فلذلك نقول: إن السعادةَ والحرية في اتباع قوانين الله، أما القوانين والأحكام التي تخالف أحكامَ الله فتأسِرُ الإنسانَ وتقيّده بقيودٍ تسلبُ السعادة منه، فإن الذي لم يذقْ طعمَ العبودية لله لا يمكن الحديثُ عن حريته، فإذا كان المرء يستطيع أن يقول: "أنا حرٌّ لأني عبدُ الله"، فها هو التوحيد.

إن الحريـة لا يمكـن تصوُّرُها بمعزلٍ عن العبوديـة لله؛ فبينهما تلازمٌ؛ بمعنى أن الذي لم يَستشـعر حقيقةَ العبوديَّة لله استشـعارًا تامًّا، ولم يتشبَّع بهـا، فلـن يَعـرف -بتاتًا- ما هي الحريّـة، فقلبُه مشـحونٌ بعديد من الآلهة المتوهَّمـة، بحيـث إن كلَّ من يملكُ القوَّة يسـتطيع أن يكون إلهًا له؛ لأنه لم يستطع الوصول إلى التوحيد في قلبه، ولم يركز قلبه على نقطةٍ واحدة، ولـم يتنفَّـسْ أجواء الحريّة، والأدهـى والأمرُّ في هذا الأمـر أنَّ المجتمع الـذي يتشـكَّل من أمثال هـؤلاء الأفراد يكـون مجتمعًا دائبًا على الأَسْـر، والسبب في هذا هو كفرانهم لنعمة الحرية. نعم، إن الله يسلب نعمة الحرية عن الذي لم يُقدِّرْها حقَّ قدرِها.

ج. صراطُ الذين أنعمَ الله عليهم

يمكن أخذُ "أنعمتَ عليهم" على إطلاقه كما يمكن أخذُه على "صراطَ الذين أنعمتَ به عليهم" بتقدير "به" أي "بذلك الصراط" فتكون النعمة هي الصراط نفسه.

ومهما كان المراد فإننا نفهم من الآية الكريمة أن هذا الطريق طريقٌ قد بزغ فيه مِن قَبْلِنا أشـهرُ الناس وأقواهم صِيتًا ولمـعَ نجمُهم ثمّ غابوا، فهم نجومُ الإنسانية وشموسُها، إن هذا الطريق سلكه آلافٌ من المنوَّرين، وهو الطريق الذي أدَّى إلى مئاتٍ من الدول التي أُسِّسَتْ على الأصول الدينيّة، إن هذا هو الطريق الذي سـارَ عليه الأنبياءُ من لدن آدم إلى سـيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام...

إننـا نتوجَّـهُ إلى الله بكلِّ كياننا قائلين: اللهم إننا نسـألك طريقَ أولئك الذين لا ندرك ماهيَّتهم ومدى سموِّهم، ولكنهم يَحْظَوْن لديك بقيمةٍ فائقةٍ إذ إنهـم يحظَـون بنعمةٍ منـك، فاهدنا إلى طريقهم حتـى إذا تحدَّثَ الذين سيأتون مِن بعدِنا عنهم، نكون نحن أيضًا مندرجين في عِدادهم.

إنني أريدُ أن أركِّزَ على هذه النقطة بالذَّات؛ وهي أنه سيأتي يومٌ، وسيُذكر الذين يَملؤون المساجد في أيامنا هذه، فإذا قيل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فسنكون مندرجين ضمنهم، فالإنسان حينما يلهجُ لسانه بهذه الجملة؛ يهيج بداخله شوقٌ واشتياقٌ، وكأنه يقول فيما بينه وبين نفسه: ينبغي أن أخلِّف لمن بعدي ميراثًا بحيث يمكن الاستفادة من ذلك العمل الذي لا ينقطع خيرُه، حتى يَذْكُروني بالخير، ويَدْعُوا لي.

وآيةُ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (سورة النِّسَاء: ٦٩/٤) تعيِّنُ المرادَ من قولِهِ "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم"، أي اهدِنا صراطَ النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وفي حديث المعراج يتحدَّثُ الرسول ﷺ عن رؤيتِهِ للأنبياءِ كلًّا على هيئتِهِ الخاصَّةِ به، وأنهم أعلنوا علاقَتَهم بالنبيّ ﷺ، وهذا المشهدُ ذو أهمّيّة فائقةٍ من حيث بيانه لمدى نورانيّة الكوكبةِ الذين نتبع خطاهم، وفي هذا تحفيزٌ على الاقتِداءِ بهم والسيرِ خلفَهم.

إن هذا المشهدَ من الروعةِ بحيث إن الجماعات المؤمنة إنْ أدركتْ معناه بروحِها وخيالِها، فإنها ستؤدّي عبوديَّتَها لله بذوقٍ وشوقٍ، لأنها ستحسّ بأنها تسير على خُطَى النبيّين والصدّيقين والشهداءِ والصالحين.

د. صراطُ غيرِ المغضوبِ عليهم

الغضبُ حالةٌ نفسيَّةٌ يُرادُ منه هنا لازمُهُ وهو إنزالُ البلاءِ والعذابِ، فـ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم﴾ يعني "صراط الذين لم ينزلْ عليهم البلاء، ولم يُعَرَّضوا لعذابِ الله"، لكن الغضبَ لا يلزمُ منه البلاء والمصيبة دائمًا، فقد يكون غضبٌ ينطوي على رحمة، فلا يَبدأ الغضبُ دائمًا من النقطة

التي تنتهي فيها الرحمة، كما لا تنتهي الرحمة دائمًا من حيث يبدأ الغضب، بل قد يكون ضمنَ الغضب رحمةٌ، فمثلًا يَقتلُ إنسانٌ إنسانًا؛ فالشريعة تقف من هذا القاتل موقفَ الغضب -إن صحَّ التعبير- وتَأْمُرُ بِقَتْلِهِ، ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾، فنحن كذلك نغضبُ على ذلك القاتل باسم الشريعة، لكن لا يعني هذا الغضبُ عدمَ الرحمةِ؛ لأن هذا الحكمَ ينطوي على رحمةٍ تجاه المظلوم ومهضومِ الحقّ، وكذلك المجتمعِ والحياةِ الاجتماعية، أي إن في هذا الغضب رحمةً خفيّة، وسُبْحَانَ مَنْ جَمَعَ الرَّحْمَةَ وَالْغَضَبَ!

وما دام الإنسان متوجّهًا إلى الله بحياتِهِ الروحيّة وعالَمِهِ القلبي يكون الغضبُ بالنسبة له عينَ الرحمة، نذكر في هذا الصدد قول الرسول ﷺ: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**"(٦٧).

فنحن إذ نقول ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عليهم**﴾ نسأل الله تعالى أن لا يجعلنا من الذين تعرَّضوا لِغَضَبِ الله، وانحرفوا عن سبيله ﷻ.

هـ. صراطُ غير الضالين عن الحقّ

وأما ﴿**الضَّالِّينَ**﴾ فهو من الضلال وهو الانحراف، والضلالُ عَمًى وعدمُ إعمالٍ للعقل ووقوعٌ في الحيرة، هذه الأمور قد تكون سببًا للضلال وقد تكونُ نتيجةً له، إذ قد يقعُ الإنسان في الضلال وعلى إثر ذلك يتعرَّضُ للسَّفَهِ والعَتَهِ والخَرَفِ والحيرة، فكأنّ بين الضلال وهذه الأمورِ تلازمًا، هذا يستلزم هذه وهذه تستلزم هذا. نعم، إننا إذ نقول: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ نتضرَّع إلى الله ﷻ ونسأله أن لا يزجَّ بنا إلى سبيل الذين يتخبَّطون في الضلال في حيرةٍ وارتباك، ولا يبصرون الوجه الناصعَ للحقّ والحقيقة.

(٦٧) صحيح مسلم، الزهد، ٦٤.

وحرف التعريف (أل) في كلمتَيْ ﴿الْمَغْضُوبِ﴾ و﴿الضَّالِّينَ﴾ إذا كان للاستغراق يكون المقصودُ جميعَ الذين تعرَّضوا لِغَضَبِ الله وجميعَ الذين وقعوا في الضلال، ونكون قد التجأنا إلى هداية الله حتى لا نسقط في الطريق الذي سَلَكَهُ هؤلاء.

ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال: "**إِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ**"(٦٨)، لكن هذا الحديث لا يفيد حصر المغضوب عليهم والضالين في هاتين الطائفتين، وقد قُصد بهما في القرآن الكريم اليهودُ والنصارى وغيرُهم، فكأن الحديث يفيد أن أقرب المعارضين للمسلمين هم اليهود والنصارى، ونعوذ بك اللهم من أن نُدفع ويُزَجَّ بنا إلى طريق مَن تعرَّضوا لغضبك وضلُّوا.

ومن هذه الزاوية يمكن أن يقال: إن جميع الكفار -مِن أَهونهم إلى أَشَدِّهم- تعرَّضُوا نوعًا ما لغضبِ الله، وانحرفوا إلى الضلالة بشكلٍ من الأشكال.

فكيف كان حالُ اليهودِ والنصارى في العهدِ الذي نزل فيه القرآن، ولماذا وُصفوا بأنهم مغضوبٌ عليهم وضالُّون؟ فالآن لِنُلْقِ نظرةً سريعةً على ذلكَ:

إن بعضَ اليهود كانوا قد حرّفوا التوراةَ، وكانوا يقولون عمَّا كتبوه بأيديهم: "هذا كتابُ الله"، وكان زعماؤهم الروحانيّون يشرحون كتابَ الله على حسب أهوائِهم، ويقدّمون شرحَهم للناس على أنه "كلامُ الله"، وكانت الأنظارُ متوجّهةً تمامًا نحو المادّة؛ فكانوا يحاولون أن ينتزعوا الإيمان من القلوب ويُحِلُّوا الرفاهَ المادِّيَّ والسكينةَ والسعادةَ المادِّيَّتَين محلّه، وكان الأنبياءُ الذين يحاولون بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ أن يحوِّلوا هذا

(٦٨) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٢.

الوضـعَ المنحـطّ بهـذه الدرجةِ، ويوجّهـوه من الكثرةِ إلـى الوحدةِ، ومن الباقـي إلى الفاني يُقتَلون بأيدي أولئك شـرَّ قتلـة، وتُداهَمُ منازلُهم، وتنفَّذُ فيهم أحكام الإعدامِ بكلِّ سهولةٍ، ويُنشَرون بالمناشيرِ نِصْفَين.

والواقـع أن اليهودَ كانوا قد انمحوا عن السـاحة المعنويّة عقبَ مُلْك سيدنا سليمان عليه السلام وقُوِّضتْ أركانُهم وأفلَسوا، فأعقبَ هذا الدمارَ المعنويَّ الدمارُ المادِّيُّ، حيث إن المادَّةَ تتبعُ المعنى، فلم يَعُد الحكّامُ الذين جاؤوا بعد سـليمان عليه السلام يسـتطيعون أن يواصلوا السـيطرةَ على اليهود، فإذا بهم تتعاقَبُ عليهم فترات الأَسْرِ، وكان اليهوديُّ يُستَحقَر ويُستذَلُّ حيثما ارتَحلَ أو حَـلَّ، ولذلك كان يحاوِل أن يحافظَ على وجوده عن طريق الجمعيات السِّـرّية التي أسَّسَـها، ولكنه جرَّاءَ سـلوكِهِ هذا المسـلَكَ الخاطِئَ كان يُثيرُ الريبـةَ والشـكَّ حتـى في أقربِ المقرَّبيـن إليه، وبذلـك كان يَفقد الجدارةَ بالرحمة وحقَّ الاستفادة منها، سواء على المستوى المادِّيّ أو المعنويّ.

فانظروا إلى هذا المشـهد، ولاحِظـوا كيف لازَمَهم هذا العار والتصقَ بِجَبِينِهِم، وإياكم -يا أمةَ محمد ﷺ- أن تستبدلوا المادَّة بالمعنى؛ فتتورَّطوا في الهاويات التي سـقطت فيها تلك الأمة السـالفة، ولا تنحازوا إلى تربُّـعِ المـالِ والاقتصادِ والرفاهِ المـادِّيّ والدعةِ ورغدِ العيشِ على أفئدَتِكم بدلًا عن الله جل جلاله، وحاوِلوا إرشادَ الناس إلى الطريق المستقيم الذي هو الطريق الحـقّ، سـائرين على نهج الرسـول الأكـرم ﷺ وفي إطار ما جـاء بها من الحقائق، لأن الناس يُلدغون دائمًا من نفسِ الجحور، ويفسُدون بالمفاسد نفسها، ويتعرضون لغضب الله تعالى بالأسبابِ نفسِها...

والنصارى أيضًا حرّفوا الإنجيل، وأوصلوا عدد الأناجيل إلى المئات. نعم، فإلى حين اجتماع "إزنيق" وإنزالِ عدد الأناجيل إلى أربعةٍ كان هناك مئـات مـن الأناجيل يناقـضُ بعضُها بعضًـا، وكان الصراعُ بيـن المذاهب

والشجارُ يُنهِكُ النصرانيّة، كيف لا وقد كان المنطِقُ معزولًا عن منصِبِهِ، والعقلُ سجينًا!؟ وكان قد ضُرِبَ ختمُ: "ممنوع" على قفا كلٍّ من المنطِقِ والعقْلِ، فكلاهما لم يكن يستطيع دخول المعبد، والذي يأتي إلى الزعيمِ الروحاني ما كانَ بإمكانِهِ إصحابُ عقلِهِ ومنطِقِهِ معه، بل يرميهما بعيدًا ثمَّ يأتي، وكانت النصرانية تؤمن بالتثليث من دون الاستناد إلى أيِّ برهانٍ عقليٍّ، وكان الإلَهُ عندهم واحدًا وثلاثة في الوقتِ نفسِهِ! وكان الزعماء الروحانيون الذين حادُوا عن الطريق إلى هذا الحدِّ يبيعون أراضي الجنة في المعابِدِ بكلِّ سهولَةٍ، ويدَّعون أنهم يُنقِذون الناسَ من نارِ جهنّم، فضَلُّوا وأَضَلُّوا، وكان "الصراط المستقيم" قد صار منذ أمدٍ بعيدٍ طَيَّ النسيان، وهُجِرَ سبيلُ سيدنا عيسى عليه السلام، وبالتالي فإن هؤلاء كانوا في الانحراف والضلال ولو كانوا غارقين في جميع نِعَمِ الدنيا.

فنحن نتضرع إلى الله تعالى أن يحفظَنا من الانحراف والانجرافِ إلى طريق هؤلاء ونقولُ: "اللهم لا تدفع بنا إلى طريقهم"، ونستصرخُ قائلين: "آمين"، طلبًا لاستجابة هذا الدعاء الشاملِ العام.

"آمِين"

كلمة "آمين" معناها: "اللهمَّ استَجِبْ"، ونعني بقولنا: آمين، أننا بالفاتحة نقدِّم إلى الله عبوديَّتنا، ونسأله ﷻ أن يُحَقِّقَ لنا ما نحتاج إليه ونتكفَّفُه.

في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**"(٦٩).

وفي سنن ابن ماجه: كان رسول الله إذا قال: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ قال: آمين، حتى يسمعها أهل الصفِّ الأول فيرتجّ بها المسجد(٧٠).

---

(٦٩) صحيح البخاري، الأذان، ١١١؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٧٢.

(٧٠) سنن ابن ماجه، الإقامة، ١٤.

الخلاصة

والآن لنُلَخِّصْ ما سردناه من بداية الكتاب إلى هنا فنقول:

كما أن القرآن الكريم جامعٌ لجميعِ الكتب والصحف السابقة، فكذلك سورةُ الفاتحة الجليلة جامعةٌ وحاويةٌ لملخَّصِ ما في القرآن الكريم، وإننا إذ نقول هذا لا نقوله لأن القرآن كتابُنا الذي نؤمن به ونعظِّمه، فمن يمعنِ النظرَ في كلماتِ القرآن ويقفْ عندها بحساسيّة ودقّةٍ بالغةٍ، فسيشاهدُ ترابُطَها المحكمَ الوثيق، وهذا الأمر كما هو موجود في القرآن موجودٌ في الفاتحة أيضًا؛ فالفاتحةُ مع أنها تتحدَّثُ عن حقائق عميقة جدًّا، وواسعةٍ للغايةِ، ومتفرقةٍ بعضها عن بعض لكنها في الوقت ذاتِه تبدو وكأنها آيةٌ واحدةٌ؛ فلو قرأنا من: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وانتهينا إلى ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وقلنا عقب ذلك "إننا قرأنا آيةً واحدةً"؛ لا نُعَدّ من الكاذبين.

أجل، إن الفاتحةَ مع أنها سبعُ آياتٍ لكنها في انسجامِ آيةٍ واحدةٍ وتناغمِها؛ فإذا كانت آيةٌ منها سببًا فالآيةُ التي تليها نتيجةٌ مترتبة على هذا السبب، وإذا كانت آيةٌ منها تتحدث عن حكمةٍ، فإن الآية التي تليها تُبين سبب تلك الحكمة وغايتَها، وإذا كانت آية منها تتحدَّثُ عن قضية لها علاقة بالحياة الاجتماعية، فإذا بالآية الأخرى تشرح قوانين تلك القضيَّة وأُسُسَها، وبالتالي فسواء كانت الحقائقُ التي يتمُّ تناوُلُها أخرويّةً أو دنيويّة؛ فبينما تُبيِّنُ آيةٌ ما وجهًا معيَّنًا، تُبيِّنُ الآية التالية الوجهَ الآخر.

وختامًا تعالوا بنا لنتطرَّقْ باختصار إلى شرحِ هذه الأمور واحدًا تلوَ الآخر، ولو على شكل نقاطٍ صغيرة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه هو الله، فالمناسَبَةُ بين "الله" و"الحمد" قويّة إلى هذا الحدّ، ولماذا الحمد "خاصٌّ" بالله؟ لأنه "ربُّ العالمين"، إنه مربّي كلّ شيءٍ، فمثلًا إنه لم يَدَع الإنسانَ في مرحلة الجُزَيْئات، فأَبلَغه بالتربية إلى مرتبة الكمال، ثم أوصله إلى مرتبةٍ بحيث سجدَتْ له الملائكةُ، ألا يُحمد اللهُ الذي يربي الإنسان بالتربية القرآنيّة العظيمة؟!

إنه ربُّ العالمين، والحمدُ خاصٌّ به ﷻ؛ لأنه هو "الرحمن الرحيم". نعم، إن آثارَ رحمتِهِ تُشاهَدُ في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ الوجود؛ ففي سيماء الإنسان، وفي تصرُّفاتِ الإنسان وعيشِهِ، وفي كلِّ ذرَّةٍ من ذرّات معنى الإنسان وماهيَّتِهِ يُشَاهَدُ أثرٌ من آثارِ رحمتِهِ ﷻ، فهل من المعقولِ أن لا يُصدَّقَ بأنه ربُّ العالمين مَن جعلَنا نُحِسُّ بآثارِ رحمتِهِ في كلِّ شيء ومِن وراءِ كلِّ حدثٍ؟ وكيف لا يُسلَّم بربوبيّة الله في كلِّ حادثة مع أنه الذي يُرِي رحمتَه في كلِّ ذرّة؟ فالحمد مخصوصٌ بِهِ جلَّ شأنه.

فأنت في هذا المقام ستَشعُر وتحسّ بالحمد، وستعرفُ الربّ، وتولي وجهك وتسير نحوه. نعم، كما أنه ربَّاك، فهو الذي سيحاسبك على ما أسدى إليك من الإحسانات؛ فإنه "مالكُ يوم الدين"، فعليك أن تحمده هو ﷻ.

نعم، إن تَسَلسُل الآياتِ وتَعاقُبها يوجّهُ الأنظارَ إلى "الرحمن الرحيم" قبل أن يوجّهها إلى "مالك يوم الدين"، فيوقظُ في القلب الإحساسَ بالرجاء، وكأنَّه يقول: انظر إلى "الرحمن الرحيم" قبل أن تنتَقِلَ إلى "مالك يوم الدين"، واملأ قلبَك بنسائمِ الرحمة، ثم استذكِرْ المحكمةَ الكبرى، فخَفْ عذابَه، وفي ضوء ذلك اخطُ خطواتِك...

فهـذا هـو الطريق الوجداني المرتبط بالعوالـم الربانية، طريقٌ ذو آفاقٍ ماورائيـةٍ يـؤدّي إلـى التربيـة والكمـالاتِ الإنسـانيّة في ظـلِّ رحمانيَّة الله ورحيميَّتِهِ.

نعم، إننا هكذا نعرف الله بآثاره كما نشاهدُ في أنفسِنا وفي الآفاق نِعَمَهُ وتربيتَهُ وقربَهُ منّا، وعلى قدرِ ما نكتَسِبُهُ من هذا الشعور نفهمُ ونُدرِكُ معنى مفهـوم "الجماعـة"، وعلى إثرِ ذلك نُرَكِّزُ بكلِّ مشـاعِرِنا وعالمنا الداخلي، ونجمـع فـي أذهاننا المُلك والملكـوت، ونقول بكلِّ كياننـا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ**﴾، وهكذا نسـتذكرُ أنه ليس لنا أن نقابلَ الله العظيمَ الجليلَ بعبودِيَّتِنَـا الفرديـةِ، وإنما يمكننا أن نقدِّم له عبوديَّتَنا ضمنَ الجماعة، فنأتي بضمير الجمـع (نعبدُ... نستعينُ) وكأنه انعكاسٌ للوجدان الجَماعيّ.

نعـم، إنـه هو الله الـذي يُربّي كلَّ شـيءٍ؛ من الذرَّاتِ إلـى المَجَرَّات، ويُرينا كلَّ حينٍ وفي كلِّ شيءٍ رحمانيَّتَه ورحيميَّتَه، فنحن بِدَورِنا من حيث إننـا لا نسـتطيعُ أن نُقابِلَ عظمتَهُ وجلالَـهُ بعبوديَّتِنا ونحن فرادى، نجتمـع فيما بيننا، ونصطفُّ خلف الإمام، ومِن بعدِ ذلك نعتبرُ الكرةَ الأرضيَّةَ أيضًا مصطَفّـةً مثلَنا، ثم نَتَخطى الزمـان ونَصِلُ إلى العصور مِن قَبْلنا، ثم نذهبُ بخيالِنـا إلـى العصـور الآتية، ونتصـور جميع الناس على الكـرة الأرضيّة متّفقيـن فـي دائرة التوحيد.. وإذْ نفكر هكذا، نتصـورُ أننا جميعًا متحلِّقون حـول الكعبـة المعظّمة، ومعنا كلُّ الأنبياء والمرسـلين على مدى العصور القديمـة، وجميـعُ المجتهديـن والمجدِّديـن والأوليـاء والصالحيـن فـي العصور التالية، مصطفّين وراءَ سـيدنا محمد ﷺ الذي هو الدليلُ الأكملُ، وقدوةُ الجميـع، والإمامُ الوحيدُ، الفردُ الفريدُ من بين عباد الله ﷻ، نتصوَّرُ هـذا، بل نتخطَّى هذه المرحلـة فنجمـع بين كل الخلايا ترابطت فيما بينها وشـكَّلت فـي جسـمنا جماعةً وبين سـائر الـذرات التي تُشـكِّل الكائناتِ

الأخرى ونعتبر كلًّا منها جماعات أخرى ونقول معهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

فإذا نظرنا من هنا إلى الوراء نلاحظُ مدى ما بين الآيات بدءًا من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى هنا من الانسجام، بحيث إنك إن سَحَبْتَ من بينها جملةً من إحدى هذه الجُمَلِ رأيتَ أن هناكَ ثغرةً خطيرةً قد حصلت، وكذلك إن أضفتَ إليها جملةً رأيتَ هناك نشازًا يُؤذي العين ويصكُّ الأذنَ؛ فمِن "الحمد" إلى "التربية"، ومن التربية إلى "الرحمة"، ومن الرحمةِ إلى انتهاءِ كلِّ شيءٍ إلى أبعادٍ أخرويّة، ومنها إلى اجتماع إرادة الإنسان بالعنايةِ الإلهيّة، كلُّ هذا يَرِدُ في انسجامٍ لطيفٍ بحيث إنه مِن غير الممكنِ أن لا ينبهرَ الإنسانُ أمامها مسحورًا مأخوذًا، ومِن بعد ذلك فإننا بقولِنا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ نكون قد سألْنَا الله ﷻ "العنايةَ" في أقدسِ الأمورِ وأسماها؛ حيث إننا نسألُهُ الهدايةَ إلى طريق أولئك الذين هداهم إليه، مِن أولئك الذين سبقونا من الأنبياء والأولياء والصلحاء، ذلك الطريق الذي سمّاه: "صراطي".

لقد مُنح الإنسانُ صلاحيَّةَ الطلَبِ من الله تعالى ما دامَ على قيد الحياة، وإن الإنسان الذي وصلَ إلى مستوى شعورِ الإيمان بالله، وأحسَّ بذلك في ضميرِهِ، ونالَ "الفناءَ في الله" بكل كيانه، حينما يقدم عبوديته ضمن جماعة من الناس، يعيش "فناءً (أي في الله)" ويعيش في نفس الوقت "بقاءً (أي بالله)" ويَظهر بذاته بين الناس، بمعنى أنه ينمحي عن ساحة الوجود من جانبٍ ويتمتَّع بوجودٍ ضمنَ مجتمعٍ من جانبٍ آخر بأن يكون جزءًا من ذلك المجتمع. نعم، إن تقديمَ الإنسانِ عبوديَّته لربِّهِ ضمنَ ذاتيَّة الجماعة، وتوجهَه إليه ﷻ بشعورٍ جمعيٍّ لَمِنَ الحلاوة بحيث لا يمكن الحديث

عن حلاوةٍ تضاهيها، ففي أثناء هذا التوجُّهِ يمنحُك الله صلاحيّة الطلب منه ﷻ؛ ويقول لك: "اطلبْ مني يا عبدي!"، فأنت في هذا الآن القصيرِ جدًّا بقدر قِصَرِ طرفة العينِ، تقول بكلِّ كيانِك ومستشفعًا لدى الحق تعالى بجاه الجماعة التي أنت من ضمنِها: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

نعم، فكأنَّك تقول: "يا رب! إننا الآن على مفتَرَق طُرُقٍ؛ فقد يكون طريقنا الذي سنسلكه طريقَ المغضوب عليهم والضالين. نعم، إن لم تَجِشْ قلوبُنا، فلم تسألك ما ينبغي سؤالُه فمن المحتمَلِ بقوَّةٍ أن تنجرف إلى تلك الطرق، ومن جانب آخر قد يكون طريقُنا طريقَك أنت وطريقَ رُسُلِكَ، فذلك الطريقُ واسعٌ معبَّدٌ ومسلوكٌ مجرَّبٌ، فبالأمس كان حبيبُك الكريم ﷺ قد جرَّبَ ذلك الطريق، وسلكه مع صحابته وأحِبَّتِهِ الصادقين، فبذلك أسمعَ جميعَ الأقطار صوتَك ونداءَك، وأَرغَم إمبراطورياتِ العالم، فها هو طريقٌ واسعٌ كلَّ السعة ومُضيءٌ بأبهى الأنوار، سلكَه ويسلكه آلافُ الأعلام من الناس، ذلك الطريق الذي يوصِلُ سالكيه إلى جنابِكَ العالي، والحقُّ أن مَن لم يأتِكَ مِن هذا الطريق فمِنَ المحال أن يصِل إليك، لأنه لا يُتصوَّرُ بين نقطتين إلا خطٌّ واحدٌ، فهذا الخطُّ هو طريقك، إن كان بين النقطتين خطوطٌ أخرى ففي كلِّها نوعٌ من الاعوجاج قَلَّ أو كَثُرَ، ونعتبر اليهودية والنصرانية من هذه الخطوط، فنسمِّي بعضَها: المغضوب عليهم، والبعضَ الآخر: الضالين، فنسألك يا ربِّ أن تهدينا إلى ما سَمَّيتَهُ: "الصراط المستقيم"، والذي هو الطريق الوحيد في استقامتِهِ من بين آلاف الطرقِ المعوجّة ولو كان بعضُها قريبًا من المستقيم...".

نقول ذلك ونتضرَّعُ إلى بارئنا بهذه الكلمات.

إن سورة الفاتحةِ التي حاوَلْنا تفسيرَها، كما قلنا سابقًا مع أنها سورةٌ تتكوَّن من سبع آيات، لكنها مِن شدَّةِ انسجامِها وتناغُمِها تبدو وكأنها آية

أو جملـة واحـدة، والحقيقة أن هذه الخاصيّة موجودة فـي القرآن الكريم من بدايتِهِ إلى نهايَتِهِ، من سـورةِ الفاتحة إلى سـورةِ الناس، وقد حاوَلنا أن نُثْبـت هذا الأمر في سـورة الفاتحة باعتبارِها السـورةَ المفتاحيَّةَ من حيث الترتيب، ولكن إذا كان هناك من ينبري لهذا ويتناول هذا الجانب بالبحثِ الجادِّ لِيُجلِّي هذا الوجه الإعجازي في القرآن الكريم، ويركّز عمله لإثباتِه وإيضاحِه؛ فسيسدُّ فراغًا مهمًّا في مجال التفسير.

وإننـا إذ نَعتبـر عملَنا هذا بمثابةِ فاتحةٍ لسـورة الفاتحة، ونُخلي مجالَ الـكلام وندعُهُ لأربابـه؛ نتضرع إلى الله ﷻ أن يجعل القرآن المعجزَ البيانِ شفيعًا لنا.

اللهـم اجعـل القرآن هـدفَ حياتِنا وغايَتَهـا، ووفِّقْنـا لأن نجعله حياةً لحياتنا وروحًا لنا...

آمين...

مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب السِّتة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)؛ **البحر المحيط في التفسير**؛ تحقيق: صدقي محمد جميل؛ دار الفكر - بيروت، (١٤٢٠هـ) .

أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ **المعجم**؛ تحقيق: إرشاد الحق الأثري؛ إدارة العلوم الأثرية - فيصل آباد، بيروت، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ السعادة - مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي - بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة (١٤٠٩هـ) بدون تحقيق)].

أبو الشيخ الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **العظمة**؛ تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري؛ دار العاصمة، الرياض، ١-٥، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م) .

ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي (ت: ٣٢٧هـ)؛ **تفسير القرآن العظيم**؛ تحقيق: أسعد محمد الطيب؛ مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، بيروت، ط ٣، (١٤١٩هـ).

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان ابن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد - الرياض، ١-٧، بيروت، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت: ١٢٧٠هـ)؛ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**؛ تحقيق: علي عبد الباري عطية؛ دار الكتب العلمية - بيروت، ١-١٦، بيروت، (١٤١٥هـ).

الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ **الموطأ**؛ تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، ط ١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

بدر الدين العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الحنفي (ت: ٨٥٥هـ)؛ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**؛ دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١-٢٥.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **دلائل النبوة**؛ تحقيق: الدكتور عبد المعطي قلعجي؛ دار الكتب العملية - دار الريان للتراث، ١-٧، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ـــــــ، **السنن الصغير**؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي - باكستان، ط ١، (١٤١٠هـ-١٩٨٩م).

ـــــــ، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-١٤، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **الزهد الكبير**؛ تحقيق: عامر أحمد حيدر؛ مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط ٣، (١٤٢٣هـ/١٩٩٦م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: ٢٥٥هـ)؛ **مسند الدارمي (سنن الدارمي)**؛ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني؛ دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١-٤، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت: ٧٩٤هـ)؛ **البرهان في علوم القرآن**؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١-٤، ط ١، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

ـــــــ، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري (ت: ٣٢١هـ)؛ **شرح مشكل الآثار**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٦، بيروت، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)؛ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**؛ المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١-٦، بيروت، ط ١، (١٣٥٦هـ).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٥)؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)؛ **شرح سنن ابن ماجه**؛ قديمي كتب خانة - كراتشي.

عبد الرازق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١هـ)؛ **المصنف**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق لابن المبارك**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء (ت: ١١٦٢هـ)؛ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**؛ تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي؛ المكتبة العصرية، ١-٢، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)؛ **الجامع لأحكام القرآن**؛ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ دار الكتب المصرية - القاهرة، بيروت، ١-١٠، ط ٢، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **جامع الترمذي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت: ٥٠٥هـ)؛ **إحياء علوم الدين**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٤، بدون تاريخ.

ـــــــ، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**؛ تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي؛ الجفان والجابي - قبرص، ط ١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).